قضايا نظرية

الطريق الروسي إلى الإشتراكية

يوجين فارغا



دار الطليعة - بيروت

الطريق الروسي
الى الاشتراكية

يوجين فارغا

الطريق الروسي الى الاشتراكية

ترجمة :
جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت ـ ص.ب ١١١٨١٣

الطبعة الاولى
ايلول (سبتمبر) ١٩٧٧

هذه ترجمة كتاب

Le Testament de Varga
Editions Bernard Grasset
Paris 1970

تقديم

ان هذا النص لكبير الاقتصاديين السوفياتيين ، يوجين فارغا ، هو واحدة من الوثائق الداخلية النادرة ، عن روسيا في العهد الستاليني وما بعد الستاليني ، التي تعادل في الاهمية تقرير خروتشيف «السري» المشهور .

شغل فارغا ، المجري الاصل ، في عام ١٩١٩ منصب مفوض الشعب للمالية ورئيس المجلس الاعلى للاقتصاد القومي في جمهورية المجر السوفياتية التي كان يترأسها بيلا كون . وبعد سحق الثورة المجرية ، استدعي فارغا في عام ١٩٢٠ الى الاتحاد السوفياتي بمبادرة من لينين لكي يعمل في الكومنترن (هيئة قيادة الأممية الشيوعية الثالثة) . وفي عام ١٩٢٧ أصبح مديرا ، في موسكو ، لمعهد السياسة والاقتصاد العالميين التابع للاتحاد السوفياتي ورئيسا

لتحرير مجلة **((الاقتصاد والسياسة العالميان))** . وفي عام ١٩٣٩ انتخب عضوا في اكاديميةالعلوم للاتحاد السوفياتي. وقد وضع عددا من المؤلفات الاساسية في موضـــوع الاقتصاد السياسي ، أثار بعضها جدلا حادا داخل الاتحاد السوفياتي وخارجه الى يوم وفاته في عام ١٩٦٤ .

والنص الذي نقدمه للقارىء العربي اليوم معروف في العالم باسم **((وصية فارغا))** ، وهو يلخص بالفعل ، على حد تعبير غارودي، تجربة سياسية عمرها نصف قرن من الزمن حول ميلاد النموذج السوفياتي في ايام لينين ثم تطور هذا النموذج في عهد ستالين وخلفائه حتى عام ١٩٦٤ .

وهو ليس بكتاب ولا بدراسة، وانما هو مشروع كتاب، خلاصة ، جملة أطروحات ، نشر للمرة الاولى في المجلة السرية المضروبة على الآلة الكاتبة : **((فينيقس))**. ولم تشكك السلطات السوفياتية قط في صحة «الوصية» ، وان لم تنشر رسميا داخل الاتحاد السوفياتي .

ولأن فارغا كان يعلم أن «وصيته» لن تنشر الا بعـــد وفاته ، فانه لم يقف فيها محرجا مترددا امام خـــرق المحرمات وانتهاك القدسيات : فهو تارة يدخل في جدال مع لينين بالذات ، وتارة ثانية يكشف النقاب عن وقائع مرعبة في المشروع الستاليني ، وتارة ثالثة يجلد بسوط نقـده خلفاء ستالين .

والصورة التي ترسمهـــــا **((وصية فارغا))** للمشروع الستاليني أشد قتامة وأكثر جذرية بكثير من تلك التـــي رسمها له **((تقرير خروتشيف السري))** . ففارغا لا يربــط

«الاخطاء» بشخص ستالين فحسب ، بل كذلك ببنية النظام . ومن هنا فانها لا تعود مجرد «اخطاء» ، ومن هنا ايضا كان تأكيده على استمرارية المشروع الستاليني حتى في عهد خلفاء ستالين الذين حطموا تماثيله ، ومن هنا اخيرا كانت نبوءة فارغا في ختام وصيته بأن الشيوعية لن ترى النور في الاتحاد السوفياتي لا في عشرين سنة ولا في مئة سنة ما دامت الامور مستمرة على استمراريتها .

والمدهش في فارغا انه ، بالرغم من القتامة المرعبة للصورة التي يرسمها لطريق روسيا الى الاشتراكية ، لم يفقد ايمانه ولم يجحده . فانتماؤه في وصيته انما هو الى وصية ماركس . وبالفعل ، ان نقدا شموليا وجذريا كنقد فارغا ما كان ليصدر الا عن وعي استوعب كل تلك النظرية النقدية الكبرى التي تعرف ايضا باسم الماركسية .

ج . ط

الطريق الروسي الى الاشتراكية

حين قامت في روسيا في اوكتوبر ١٩١٧ ثورة قلبت راسا على عقب حياة البلاد الاجتماعية ، فانما قامت على اساس نظري محدد ودقيق حافظ على قيمته كأطروحة رسمية حتى يومنا هذا . وكانت النقاط الاساسية فيه هي التالية : لقد بلغت الراسمالية العالمية الطور الامبريالي من تطورها ، وهو طور يسبق مباشرة انتقال البلدان المتقدمة الى النظام الاشتراكي . ونظرا الى ان عصر الحروب العالمية والثورات الاشتراكية قد دُشن ، فان سلسلة الامبريالية يمكن ان تقطع في قطر واحد، حتى وان لم يكن اكثر الاقطار تطورا . ولقد مثلت ثورة اوكتوبر هذا الصدع في الجبهة الامبريالية . وأنارت البروليتاريا الروسية لبلدان اخرى اكثر تطورا طريق الاشتراكية .

وقد تصرم الان زهاء خمسين عاما على ثورة اوكتوبر. ولم يسر حتى اليوم اي قطر متقدم ، بلغ فعلا الطـــور الامبريالي ، في الطريق الذي انارته روسيا . والاقطار التي تحاول سلوك هذا الطريق في آسيا وأفريقيا اليوم هـــي اقطار أشد تأخرا ، من منظور تطورها ، حتى من روسيا في عام ١٩١٧ .

كيف نفسر هذه الخاصة ؟ هل الاساس النظري لثورة أوكتوبر صحيح ؟ للاجابة على هذا السؤال يخلق بنا قبل كل شيء ان نعيد الى الاذهان نظرية تطور روسيا الثوري كما رسمها فلاديمير ايليتش لينين، المنظر العظيم لبروليتاريا روسيا الثورية وزعيمها طوال حياته. يخلق بنا ان نتساءل: الى اي مدى رسمت هذه النظرية بصواب وصحة آفـاق التطور الاجتماعي ؟ وينبغي في الوقت نفسه ان نفسر ما جرى فعلا وواقعا في روسيا في عام ١٩١٧ وفي العقود التالية ، وأن نتساءل عن مدى تطابق ذلك كله مع نظريات لينين .

البرنامج الزراعي للاشتراكية ـ الديموقراطية (١)

قبل ثورة اوكتوبر بعشر سنـــوات ، حرر لينين

---

١ ـ العناوين الداخلية هي من وضع الناشر . «م»

«البرنامج الزراعي للاشتراكية ـ الديموقراطية في ثورة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ الروسية الاولى» . وقد رسم فيه آفاق تطور البلاد الثوري . وما كان ، عصرئذ ، يتخيل الثورة الاشتراكية في روسيا الا في مستقبل ناءٍ قصي . لكنه حلل المنظورات القريبة لتصارع الاتجاهين الطبقيين الاثنين في الثورة البورجوازية الروسية .

وقد اطلق على كل من هذين الاتجاهين اسم «الطريق البروسي ، على طريقة اليونكر» (١) و«الطريق الاميركي ، على طريقة المزارعين» . وكان لينين يدرك حق الادراك ان روسيا لا تنتمي الى فئة البلدان التي تطورت فيها الراسمالية بصورة «كلاسيكية» ، وأن رأسماليتها كانت لا تزال في جملتها واهنة التطور للغاية . وفي الواقع ، كان الانتاج في عزبات (٢) الملاكين العقاريين محصورا بل مخنوقا في علاقات نصف اقطاعية ، فما كان يتقدم الا ببطء شديد . وكانت النبالة الليبيرالية ، المتخوفة من الانتفاضات الشعبية ، تضع اعتمادها اكثر فأكثر على السلطة الاوتوقراطية ، وكانت قد فقدت منذ زمن بعيد روحها الثورية السابقة .

---

١ ـ اليونكر : ارستقراطي الماني من اعيان الريف . «م»

٢ ـ العزبة : ملكية زراعية كبيرة يعمل فيها فلاحون لحساب مالك غير مقيم . «م»

كان في مستطاع الجماهير الفلاحيـــة المضطهَدة ان «تطوح بالنظام الاوتوقراطي والاقطاعي من أسسه» اذا مـا امتلكت المقدرة على القيام بانتفاضة حازمة ومتزامنة . لكن الانتفاضة العفوية للجماهير ليست هي بعد الثورة . وهكذا راح لينين يبحث بين صفوف الفلاحين عن قوى ثوريـــة حقيقية ، اي خبيرة بالاشكال الجديدة ، المتقدمة ، للانتاج الزراعي ، ومتمتعة بالتالي بالوعي السياسي المناظر . وفي الوقت نفسه كان لينين يفهم مدى ضعف بورجوازيـــة المزارعين الروس ، ومدى أميتها السياسية وانقسامها على نفسها . لكنه كان يفترض فيها مع ذلك القدرة على انجـاز مهمتها الثورية ، اي الاطاحة بالنظام الاوتوقراطي والمولوي، شريطة ان يتوفر لها الدعم والمساندة من قبل الطبقة العاملة الثورية .

كانت الموضوعة المحورية في «برنامجه الزراعـــي» الاشتراكي ـ الديموقراطي التوكيد على ضرورة تأميـــم الارض بكاملها فور انتصار الثورة . وكان يرى ان تأميـــم الارض هو وحده الذي يتيح امكانية تصفية سريعة وشاملة لجميع الاشكال القديمة ونصف الاقطاعية للملكية الارضية، واعادة الارض الى أيدي ملتزمين ومزارعين جدد وأكثـر تقدمية .

في الوقت نفسه ، كان لينين يشدد على ضرورة المرحلة التالية في التطور الديموقراطي ـ البورجوازي في روسيا: «... من توسع الملكية العقارية الرأسمالية للملاّك الجـدد تنبع بالبداهة ذهنيتهم المعادية للبروليتاريا ورغبتهم فـي

ان يصطنعوا لانفسهم امتيازا جديدا في شكل حق الملكية».
وقد أفصح لينين عن فكرة تثير الاهتمام حقا : ان اعادة توزيع الارض قد تحددها رغبة المزارعين في «تهدئة» (او حتى «خنق») البروليتاريا والشرائح البروليتارية التي سيخلق لديها تأميم الارض الرغبة في تشريك الانتاج الاجتماعي برمته .

كان لينين ينظر اذن بعين الاستهجان الى صدور مثل هذه النوازع والمطامع عن البروليتاريا في الاطوار التي حددها من الثورة البورجوازية . لكنه كان يفترض في الوقت نفسه ان تطور بورجوازية المزارعين سيكون سريعا الى درجة تكفي للتمكن من «تهدئة» البروليتاريا عند اللزوم. وهكذا راح لينين يدعو في عام ١٩٠٧ الى صيغة روسية خاصة من طريق التطور الرأسمالي ، «طريق المزارعين الاميركي» ، صيغة تأخذ فيها الطبقة العاملة بيد بورجوازية ريفية جديدة ، تقدمية ومنتجة ، الى سدة السلطة . وكان يرى ان مثل هذه البورجوازية ستنمّي وستطور بسرعة رأسمالية قومية جديدة ، منعتقة من المخلفات الاقطاعية كافة ؛ وعندئذ ، واذا ما تم ذلك ، ستخوض الطبقة العاملة التي توسعت صفوفها واشتد ساعدها خلال ذلك التطور، صراعها مع البورجوازية الجديدة في سبيل الانتقال بالمجتمع الى الاشتراكية . وبديهي ان هذا كله كان يتطلب عشرات السنوات من التطور المستقل لروسيا .

كيف كان لينين يتصور في عام ١٩١٧ منظورات الوضع

الثوري في روسيا ؟ كان في وسعه ان يرجع الى التصور الذي صاغه في «برنامجه الزراعي» لعام ١٩٠٧ . وكان في وسعه ان ينظر الى الاحداث التي جرت على انها ثـــورة بورجوازية ، وأن يعلن ان مهمة الثورة هي تنظيم «دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين» . وكانت هناك اسباب موضوعية عديدة تبرر هذا الاختيار . ومن ذلك ان الحكومة الثورية ستؤمم ولا بد الارض ، وسيتوازع الفلاحون فيما بينهـــم معظم الاراضي المولوية . وهذا ما كان سيتيح امكانية بدء تطور فعال في نظام المزارعين ، الامر الذي كان لا بد ان يعزز بسرعة الجناح اليساري من الاحزاب الفلاحية القديمة (الاشتراكيين ــ الثوريين ، الترودوفيكيين (١) ، الخ) . وبذلك كانت ستتوفر للبلاشفة امكانية تشكيـــــل ائتلاف حكومي مع تلك الاحزاب . وفي هذه الحال ، كانت الثورة ستحارب كولتشاك ودينيكين (٢) من دون ان تهدر القوى في قمع انتفاضات الاشتراكيين ــ الثوريين والاضطرابات التي أوقد الكولاك (٣) نارها . وفي ارجح الظن ، كان ضغط

---

١ ــ الترودوفيكيون (مجموعة العمل) : مجموعة من الديموقراطيين البورجوازيين الصغار، تأسست عام ١٩٠٦ وضمت نوابا وفلاحين يطالبون بالمساواة في حق استثمار الارض . «م»

٢ ــ من قادة الثورة المضادة اثناء الحرب الاهلية . «م»

٣ ــ الكولاك : الفلاحون الموسرون . «م»

التدخل الاجنبي سيكون واهيا للغاية . لكن كان سيتواجه، في هذه الحالة ، اتجاهان اثنان داخل الدوائر الحكومية : بروليتاري وبورجوازي صغير. وكانت «الصراعات الداخلية» ستغرق الثورة في الركود والأسن لسنوات طويلة ، الامر الذي كان لا بد ان يفت في عضد روسيا حيال الدول الامبريالية المعادية .

لكن لينين تبنى تصورا مغايرا تماما في عام ١٩١٧ . فالثورة الروسية هي في نظره الان القفزة الثورية الاولى المحققة على الصعيد الاممي . وكان هذا التأويل الجديد ينطوي على تصور مذهبي للماركسية .

كان لينين يعتقد ان الامبريالية العالمية ليست مرحلة الرأسمالية العليا فحسب ، بل ايضا مرحلتها الاخيرة التي لا بد ان تعقبها مرحلة انتقال جميع بلدان العالم الى الاشتراكية . وكان يرى ان تذمر البروليتاريا في البلدان المتحاربة وبعض محاولات الانتفاضات العمالية هي بمثابة تدشين لهذه المرحلة . وكان يقدر ان الثورة الروسية هي بداية الحركة .

حين وصل لينين الى بتروغراد في ٣ نيسان ، صرح ان الثورة الروسية ثورة «اشتراكية» . وكتب بعيد ذلك في كراسته **«مهام البروليتاريا في ثورتنا»** : «ان انتقال السلطة الى البروليتاريا ... سيكون في العالم قاطبة بداية «القطيعة الجبهوية» ــ جبهة مصالح الرأسمال ــ وليس في مستطاع البروليتاريا ان تخلص الانسانية من أهوال الحرب وأن تكفل لها نِعَم سلام دائم الا اذا أحدثت

قطيعة في **تلك** الجبهة» .*

وما ونى لينين ، في الاعوام التي اعقبت ثورة اوكتوبر، يعقد الآمال على ثورة اشتراكية عالمية . وحتى في عام ١٩٢٠ كتب في مقدمته للطبعة الفرنسية من **«الامبريالية مرحلة الرأسمالية العليا»** : «ان الامبريالية على شفا الثورة الاجتماعية للبروليتاريا. هذا ما ثبتت صحته في عام ١٩١٧ على الصعيد العالمي» .

حول ثورتنا

في الواقع لم تثبت صحة ذلك . لا في العشرينات ولا في الاربعين سنة التالية . وحتى الان لم تندلع الثورة الاجتماعية في اي قطر من أقطار «الرأسمالية الكلاسيكية» . كان معقد الامل على ألمانيا المقهورة . ومع ذلك ، لم تقم قائمة حتى للوضع الثوري في هذا القطر . فقد قمعت الانتفاضات العمالية ، واغتيل بغدر روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت ، زعيما جناح البروليتاريا الثوري .

وقد اعطى لينين ، الذي طفق يعي تدريجيا هذه الوقائع كلها ، اعطى قبيل وفاته تفسيرا آخر لثورة اوكتوبر ، اكثر مطابقة للواقع ، وذلك في ملاحظاته **«حول ثورتنا»** التي حررها في كانون الثاني ١٩٢٣ . ففيها وضع معالم تصور مطلق الجدة لتاريخ عصرنا . وجاءت صياغته

في غاية الاقتضاب ، تكاد تخلو من التفصيل ، وبحاجة الى التحليل والتفسير .

يتضمن هذا النص أطروحتين رئيسيتين . الاطروحة الاولى : «أليس في مستطاع شعب متواجد في وضع ثوري ، كذاك الذي قام خلال الحرب الامبريالية الاولى ، أن يرمي بنفسه ، في مواجهة ورطة لا خلاص منها ، في معترك نضال يفتح له الباب ولو الى فرص قليلة ليحصل على شروط ليست اعتيادية تماما لتقدم الحضارة ؟» . وفي مقطع آخر : «اذا كان بناء الاشتراكية يفترض مسبقا الوصول الى مستوى محدد من الثقافة ... فلماذا لا نبدأ اولا بأن ننتزع ثوريا الشروط المسبقة لذلك المستوى المحدد ، لنتحرك **من ثم** للحاق بسائر الشعوب مسلحين بسلطة عمالية وفلاحية وبالنظام السوفياتي» .

ماذا كان يعني بالنسبة الى الشعب الروسي في عام ١٩١٧ أن يكون في «ورطة لا خلاص منها» ؟ لم تكن المسألة مسألة هزائم عسكرية فحسب ، ولا مسألة فوضى ومجاعة في حد ذاتهما فحسب ، وانما كانت المسألة تكمن في ان الطبقات السائدة القديمة ما كانت تملك لا القوة ولا درجة التنظيم المطلوبتين للخروج بالبلاد من إسار الفوضى والمجاعة . وكانت القوة الوحيدة القادرة على اخراجها من الفوضى هي الطبقة العاملة الثورية .

وبناء عليه ، حدثت ثورة اوكتوبر لا لأن «القطيعة في الجبهة الامبريالية على الصعيد العالمي» كانت ممكنة في روسيا ، وانما بسبب فرادة العلاقات بين القوى الطبقية

في المجتمع الروسي المتخبط في مأزق الفوضى والمجاعة . فقد قاد الاشتراكيون ـ الديموقراطيون الثوريون الجماهير الكادحة على طريق خاص في الانتقال الى الاشتراكية ، طريق لم تتوقعه اي نظرية ماركسية : فقد بدأت الديموقراطية التقدمية في بلد متأخر ، شبه مستعمَر ، بالاستيلاء على السلطة السياسية لكي تخلق من ثم ، على ذلك الاساس ، مقدمات انتقال الى الاشتراكية .

وأطروحة لينين الثانية بصدد الثورة الروسية هي كالآتي : «... كان في وسع روسيا ، الواقعة بين اقطار متمدينة وبين اقطار اخذت تلك الحرب بيدها الى الحضارة للمرة الاولى وبصورة نهائية ، اي الشرق كله ... كان في مستطاع روسيا هذه ، وواجب عليها بالتالي ، ان تتمخض عن بعض سمات خاصة ، تأخذ مكانها بالطبع في الاطار العام للتطور العالمي ، لكنها تميز ثورتها عن جميع ما عداها من الثورات السابقة في اوروبا الغربية وتنطوي على بعض جوانب من الجدة بالمقارنة مع البلدان الشرقية» . او ايضا: «واذا ما اتاحت لنا الورطة التي لا خلاص منها البتة ... امكانية المباشرة ببناء المقدمات الاساسية للحضارة على نحو مغاير لما فعلته سائر دول اوروبا الغربية ؟» .

ليس المقصود هنا بالطبع الموقع الاقليمي لروسيا بين الغرب والشرق ، وليست المسألة ايضا مسألة الورطة التي لا خلاص منها التي أوجدتها الحرب . فقد دشنت روسيا، بثورتها ، نمطا جديدا للتطور القومي ، طريقا للانتقال الى

الاشتراكية ، متحاشية الرأسمالية بحصر معنى الكلمة ، وقدمت بالتالي قدوة تاريخية لسائر الشعوب نصف المستعمرة ، بله المستعمَرة ، لا شعوب الشرق وآسيا فحسب ، بل ايضا شعوب قارات اخرى . وقد تأكدت فعلا صحة ذلك «على الصعيد العالمي» ، لا بعد الحرب العالمية الاولى ، وانما بعد الثانية ، وهذا فارق شاسع من منظور التاريخ الحديث .

الطريق الروسي نحو الاشتراكية

كتب لينين في الملاحظات نفسها ، ليدحض سوخانوف (١) ورفاقه ، ان هؤلاء «لم يفهموا الجدل الثوري» . وبالفعل ، وابتداء من المرحلة التي شرعت تتطور فيها الامبريالية ، شهد المسرح العالمي والتاريخي ارتسام معالم «جدل ثوري» جديد وأصيل : فالشعوب المتأخرة ، نصف المستعمَرة ، لا الشعوب المتقدمة ، هي التي نهجت طريق التحويل الاشتراكي الذي اخذ ، اول ما اخذ ، شكل تأميم لوسائل الانتاج الرئيسية من قبل

---

١ ــ كتب لينين ملاحظاته «حول ثورتنا» ردا على مذكرات ن. سوخانوف . «م»

سلطة دولة تعبر عن مصالح الطبقات الكادحة في هذا القطر او ذاك .

كانت الامبريالية ، بفعل تغلغلها الاقتصادي وتوظيفاتها من الرساميل ، المترافقة احيانا بضغط عسكري ، بل باحتلال ، قد اضعفت وفتت في عضد الانظمة المحلية او البورجوازية «الكومبرادورية» ، بشرائها الدوائر الحاكمة المحلية او القضاء عليها ، مجردة اياها بالتالي من آخر بقايا الوعي القومي . وكانت من جهة اخرى قد أنمت وطورت شرائح من العمال الصناعيين والعمال الزراعيين ، الامر الذي ترتب عليه تفاقم اضطهادهم الاقتصادي والسياسي ، وحدوهم الى الاحتجاج ، وتدعيم تلاحمهم ، ويقظة وعي المصالح التقدمية القومية .

وفي الوقت نفسه ، عملت الامبريالية على اشراك الشرائح الديموقراطية في البلدان المستعمَرة ونصف المستعمَرة في منجزاتها المادية ، ملقنة اياها الاشكال المتقدمة للنضال السياسي والايديولوجي ، تلك الاشكال التي رأت النور للمرة الاولى في البلدان الرفيعة التطور . فقد علمت العمال المحليين كيفية استخدام النضال النقابي للدفاع عن مصالحهم الطبقية . وهكذا تكون قد شجعت الانتلجانسيا المحلية على تمثل النظريات السوسيولوجية التقدمية ، وأفكار الاشتراكية ، بل احيانا التصور الماركسي للعالم ، ذلك التصور الذي أنشىء وصيغ في اقطار الرأسمالية الكلاسيكية .

وإنما في البلدان المستعمَرة ونصف المستعمرة حيث

توفرت الشروط المحلية أمكن ، على وجه التحديد ، ان تتشكل حركات ديموقراطية ، تقدمية ، قومية ، ناشطة ، وأمكن ان يبدأ النضال في سبيل التحرر القومي من نير المستعمِرين ، وفي الوقت نفسه من نير الشرائح الحاكمة التي كانت قد تحالفت معهم . ولم يكن هناك مناص بالطبع من ان يخاض ذلك النضال تحت شعار مناهضة الرأسمالية ، او «الطرق غير الرأسمالية» للتطور، او حتى «طريق الاشتراكية» .

كان اول قطر عرف ذلك كله وسار في ذلك الطريق هو روسيا بمستعمراتها العسكرية والاقطاعية الاشد تأخرا منها . ولهذا ، سنكون اقرب الى العدل اذا وصفنا هذا النمط الخاص للتطور القومي بـ «الطريق الروسي للانتقال الى الاشتراكية» . اما سائر الاقطار فقد سلكت هذا الطريق بعد تأخر طويل ، مقتدية الى حد كبير بمثال روسيا السوفياتية ، التي كانت اثناء ذلك قد تطورت ودعمت مواقعها ، ومستفيدة الى حد كبير ايضا من مساندتها ومؤازرتها . لم تنتصر الثورة الاشتراكية بعدئذ في اي قطر من اقطار «الرأسمالية الكلاسيكية» . وليس ثمة مما يحدونا الى الافتراض بأنها ستحدث في اي منها خلال العقود القادمة .

«الماركسية الخلاقة»

بذلك لا يكون لينين قد اكتفى بتفسير المرحلة الامبريالية

الجديدة للرأسمالية من منظور نظرية ماركس وانجلز . بل كان ايضا المنظّر الاول للطريق الروسي في انتقال البلدان المتأخـــرة المستعمَرة ونصف المستَعمرة الى الاشتراكية ، وهو الانتقال الذي يتم بتخطي المرحلة الرأسماليـــة بحصر المعنى .

لقد كانت هذه النظرية هي «الماركسية الخلاقة» التـــي بدأ يدور الكلام حولها في عام ١٩١٧ ضمن نطاق الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) . وتذكرنا هذه الماركسيـــة الخلاقة من اكثر مـــن جانب بالنظريات الاشتراكيـــة للديموقراطيين الثوريين الروس : تشيرنيشفسكـــي[1] ، والى حد اكبر ، تكاتشيف[2] . بديهي ان البون شاسع بين تكاتشيف وبين لينين في طوره الاخير . فقد كانت الطبقة الثورية الرئيسية في نظر الاول هي طبقة الفلاحين الروس بتقاليدها الواسعة ، في حين كانت تتمثل في نظر لينين بالبروليتاريا الروسية التي عركها الانتاج الصناعـــي ورص صفوفها وصهرها في بوتقة واحدة .

---

١ ــ تشيرنيشفسكي (١٨٢٨ ــ ١٨٨٩) : ديموقراطي ثوري ، كاتب ، ناقد ومنظّر . نفي عشرين عاما الى سيبيريا . كان من دعاة ثورة فلاحية تبني الاشتراكية تدريجيا من دون المرور بالرأسمالية .

٢ ــ تكاتشيف (١٨٤٤ ــ ١٨٨٥) : ناقد ادبي وايديولوجي للشعبوية . سجن ثم هاجر . وتمتّ نظرياته بصلة نسب الى نظريات بلانكي .

ذلك هو طريق التطور الاجتماعي الذي دفع فيه الحزب الشيوعي الروسي ابتداء من عام ١٩١٧ بالشعب الروسي ، والذي سلكه الشعب الروسي بمفرده على مدى ثلاثين عاما ، والذي يسير فيه منذ نحو عشرين عاما الى جانب شعوب اخرى مستعمَرة وشبه مستعمرة . فما النتائج التي وصل اليها المجتمع الروسي على هذا الطريق؟ ان ثمة منجزات قومية وأممية عظيمة تسجل له ولا ريب ، ولكنها محدودة بالعيوب والنواقص الكبيرة للنظام الاجتماعي الموجه لحياته ، والناجمة بالطبع عن خصائص تاريخه . واذا كان من الميسور القيام بجردة لتلك المنجزات ، فان النواحي السلبية في الحياة القومية للاتحاد السوفياتي تستدعي بالمقابل التحليل الدقيق المنهَّج .

سلطة السوفييتات

ان الازمة العميقة التي هزت مجمل الحياة الاجتماعية الروسية والتي اخذت شكلا حادا غب هزائم ١٩١٧ العسكرية كان من نتيجتها تسليط ساطع الضوء على العجز التام للدولة القديمة ، الرجعية ، البوليسية ، المولوية ، عن الاستمرار في حكم البلاد كما في الماضي ، وفي الوقت نفسه ، على رفض الشغيلة الاستمرار في الانصياع لسلطانها . وهذا ما حدد الصبوات الرئيسية للنضال الثوري الذي كان يخوضه شغيلة الجماهير العمالية

والفلاحية ، وأفضى الى ثورة اوكتوبر التي ألقت بمقاليد السلطة بين يدي الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) .

لم يكن جوهر صبوات ثورة اوكتوبر رغبة الشغيلة في ارساء أسس الاشتراكية ، فقد كانت افكار الاشتراكية العلمية لا تلقى من فهم نسبي الا لدى الشريحة العليا من الطبقة العاملة وكانت غير مفهومة بالمرة لدى جماهير الفلاحين ؛ وانما كان جوهر تلك الصبوات رغبة الشغيلة في تصفية الأوضاع القديمة ، الفاسدة جملة وتفصيلا ، وكراهية الجماهير لا للوزراء والحكام العامين ورجال الدرك فحسب ، بل ايضا كراهيتها للملاّك العقاريين وأصحاب المعامل وجنرالات القيصر وضباطه ، ورغبة الشعب في الانعتاق من سلطانهم ومن استغلالهم الاقتصادي وفي اقامة نظام جديد حر ، وإرساء أسس سلطة تتجاوب والمصالح الشعبية .

هذه الكراهية ، التي طالما اختمرت وغلت في وجدان الجماهير ، والتي وجدت اخيرا منفذا لها ، كانت وراء التوتر الثوري لأحداث ١٩١٧ وسنوات الحرب الاهلية والكفاح ضد التدخل الاجنبي . وقد وحدت هذه النضالات بين العمال والصناعيين ، والشرائح الفقيرة في المدن والارياف ، وغالبية الفلاحين المتوسطين ، والجنود والبحارة المتمتعين بقدر اعلى من الوعي الطبقي والمتحدرين من صلب مجمل تلك الفئات الاجتماعية . وقد حشدت هذه الفئات ممثليها في اجهزة السلطة الجديدة وفي

«سوفييتات النواب العمال والفلاحين» ، ودفعت بهم الى النضال الحازم «في سبيل سلطة السوفييتات» .

لقد تولد عن ذلك الغضب وتلك الصبوات ، في وجدان عدد كبير من الشغيلة ، حس الواجب المدني ، والحماسة العسكرية ، والجرأة على اجتراح المآثر وعلى مواجهة القوى المعادية على صعيد العمل او على صعيد تنظيم الاشكال الجديدة للسلطة الاجتماعية . وكان الناطقون بلسان الانتلجانسيا الثورية ، وخطابات ومقالات قيادة الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) التي كان لينين يسدد خطاها، كان هؤلاء جميعا يعملون باستمرار على زرع افكار «الاشتراكية» و«سلطة السوفييتات» في وجدان الجماهير .

وكانت تقف في وجه هذا المعسكر الثوري ، مدججة بالسلاح ، قوى اجتماعية ليست بورجوازية بحصر المعنى وانما تنتمي جميعها تقريبا الى المعسكر القديم نصف الاقطاعي والبورجوازي والمولوي : جنرالات القيصر وضباطه ، النبلاء ، القوزاق من ذوي المال والسلطان ، الكولاك ، البورجوازية الريفية الربوية والتجارية المدفوعة بقناعات رجعية . وبالرغم من المقاومة الضارية من جانب هؤلاء الناس ، المدعومين بقوات التدخل الاجنبي لأربع عشرة دولة ، كانت الغلبة في نهاية المطاف للثوريين . فقد كانت الشرائح الثورية على درجة من القوة والتلاحم أمكن لها معها ، من خلال امتحانات قاسية للغاية (هزائم عسكرية ، فوضى اقتصادية ، مجاعة) ، أن ترفع عاليا بعد اربع

سنوات الرايات الحمر لسلطة السوفييتات فوق البلاد قاطبة ، فيما خلا تخومها الغربية القديمة .

التناقضات الطبقية في المجتمع الجديد

بيد انه على الرغم من هذا الانتصار الصاعق كانت تنضج في قلب المعسكر الثوري تناقضات طبقية عميقة ، تولدت عن طابع ثورة اوكتوبر بالذات . فقد تمت هذه الثورة باسم «المثل العليا» للاشتراكية ، وكانت تحمل صفة «الاشتراكية» . لكنها لم تكن في الواقع اشتراكية الا بصورة جزئية . فقد كانت الخاتمة المحتمة والدموية لا لحرب واحدة وانما لحربين اجتماعيتين مختلفتين ما ونت رحاهما تدور منذ أمد طويل في المجتمع الروسي ، وكان لينين قد اشار اليهما عام ١٩٠٥ في مقاله **«الاشتراكية والفلاحون»** .

كانت الحرب الاولى هي حرب كل الطبقة الفلاحية وايديولوجييها ضد النظام الاوتوقراطي والمولوي ، في سبيل «الارض والحرية» . وكانت الثانية هي حرب البروليتاريا والشرائح شبه البروليتارية من الفلاحين ضد البورجوازية المدينية والريفية ، في سبيل تأميم جميع الوسائل الرئيسية للانتاج الصناعي وتشريكها . ولئن لم تكن ثورة اوكتوبر بحكم ذلك ثورة اشتراكية الا بصفة جزئية ، فقد كانت في الوقت نفسه ، والى حد مماثل ،

ثورة فلاحية بورجوازية . وما كان أبطالها الحقيقيون العمال الصناعيين الذين صادروا الملكية البورجوازية فحسب ، بل ايضا الجماهير الواسعة للفلاحين الفقـــراء والمتوسطين ، وكذلك الجنود والبحارة المتحدرين من صلب هذه الشرائح الاجتماعية ، الذين كانوا يفرون من الجبهة ومن سفنهــم ليعودوا الى الارياف وليجتاحوا أملاك الموالي (١) وليتوازعوا أراضيهم .

وبقيام الثورة آلت المنشـــآت الصناعية والمناجـــم والمصارف والسكك الحديدية الى ملكية الدولة السوفياتية التي تولت تسييرها . وفي حين ان شطرا واهيا مـــن الاراضي المزروعة آل الى ملكية الدولة الجديدة ، أعتبر القسم الاعظم منها بحكم المؤمم . وما امكـــن للفلاحين ان يطبقوا الاقتراح الذي أفصح عنه لينين في مؤتمر الفلاحين الاول والذي دعا فيه الى تحويل اراضي الملاّك مـــع معداتها الى قاعدة لمستثمـرات جماعية يسيِّرها أفقـــر الفلاحين وأدقعهم حالا . فقد استولى الفلاحون علـــى الملكيات الارضية او أعملوا فيها بترا وتقطيعا .

لقد جرت الثورة الفلاحية البورجوازية تحت شعـــار

---

١ ــ قد يكون من المفيد ان نذكر هنا بأن لكلمة المولى بالعربيـــة معنيين متناقضين : السيد والعبد ، واننا نستعملها هنا مع النسبـــة اليها بالمعنى الاول . «م»

الثورة الاشتراكية . لكن الثورة الاشتراكية كانت في الوقت نفسه ، والى حد كبير ، تحظى بالتأييد والمساندة والدفاع من قبل القوى الطبقية للثورة الفلاحية البورجوازية . ولو ان هذه القوى لم تجرفها صبوات الكفاح ضد النظـــام الاوتوقراطي والمولوي ، والرغبة في الحصول اخيرا على «الارض والحرية» ، لما كان امكن للثـورة البروليتارية ان تنتزع لواء النصر وأن توطد قدميها في العواصم والمراكز الصناعية . ولكانت سحقتها الثورة المضادة البورجوازيـة والمولوية .

كان ثمة تناقض عميق ، متلبس شكل تناحر طبقي ، بين المثل العليا الفلاحية ، «الارض والحرية» ، التي كانت تعبر عن امكانية الطريق الرأسمالي ، طريـــق المزارعين ، وبين المثل العليا البروليتارية ، «الاشتراكية العلمية»، التي تنفي الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . ولقد أصاب لينين كبد الحقيقة في عام ١٩٠٧ حين افترض ان ذلك التناقض لا يمكن ان يحل الا بالعنف ، بواسطة القوة المسلحة . وكان يتصور ان بورجوازية المزارعين ، اذا ما تطورت ووطـدت أركانها ، تهدد بأن «تهدىء» بأن تخنـق البروليتاريا ، حليفتها في الثورة المناوئة للاقطاع . والحال ان الظاهرة المعاكسة كليا هي التي حدثت ، وهي ظاهرة تضارع السابقة في طابعها الدرامي .

بالتوازي معذلك التناحر الطبقي داخل المعسكر الثوري الذي أرسى في جميع أرجـــاء البلاد أسس «سلطـــة السوفييتات» ، كان تناقض آخر ، أقل منظورية خارجيا ،

ينبثق بدوره من البنية الطبقية للمجتمع الروسي وكان لا بد ان يفضي هو الآخر الى نتائج درامية في وقت لاحق : تناقض اخذ يبرز هذه المرة بين القوى الاجتماعية التي يتكون منها المعسكر الثوري بالذات .

اذا كان «العنصر» الطبقي الاول داخل المعسكر الثوري هو ، بحصر المعنى ، البروليتاريا الصناعية المرفودة بسلك العمال الأجراء المستخدَمين بصفة دائمة في السكك الحديدية والمواصلات النهرية والملكيات الزراعية الكبيرة والورشات ، واذا كان «العنصر» الطبقي الثاني في هذا المعسكر يضم صغار المالكين لوسائل الانتاج في المدينة والريف ممن كان في مقدورهم على الدوام تأمين حاجاتهم اما بعملهم الشخصي وإما باستغلالهم يدا عاملة اجيرة ، فان هذا المعسكر نفسه كان يضم جزئيا «عنصرا» طبقيا ثالثا يقتضي تحديدا نظريا واضحا .

كتب لينين في **«رسائل من بعيد»** ، في معرض تحليله توزيع القوى الطبقية في روسيا بعد الاطاحة بالقيصرية ، كتب يقول : ان «سوفييت النواب العمال يفتش عن حلفاء في صفوف البروليتاريا بأسرها وفي صفوف جمهرة السكان الفقراء قاطبة» ، وان هذا السوفييت هو ممثل أفقر جماهير السكان ، وانه لا غنى عن انشاء «تنظيم عظيم آخر للبروليتاريا يقود الكتلة الساحقة من فقراء المدن والارياف ، من شبه البروليتاريا وصغار المستثمرين» .

بيد ان الفقر مفهوم مطاط . فقد يكون فقيرا العامل في

الصناعة او في السكك الحديدية الذي حافظ بالرغم من كل شيء على حس داخلي بالتنظيم ، بسبب استخدام التقنية وارتباطه بالجهاز العامل في المنشأة . وقد يكون فقيرا جدا أيضا الفلاح المالك لقطعة صغيرة من الارض او الحرفي المستعد لأداء عمل دائم وشاق ، وان يكن فرديا.

لكن كانت هناك فئة فقيرة من طبيعة مغايرة ، تتألف من «العناصر» المدقعة ، المخلّعة طبقيا ، التي تحيا في حضيض المجتمع ودركه الاسفل . وكان حال هؤلاء الناس واحدا من اثنين : اما انهم اضاعوا وإما انهم لم يملكوا قط أملاكا زهيدة ، فضلا عن انهم لم يساهموا قط في العمل الصناعي وسط عمال المنشآت ، وكانوا يعتاشون على ما يعرض لهم من رزق بالاتفاق والمصادفة . كانت هذه الشريحة تجهل العمل الثابت والمنظّم ، وتشكو من تقلب وضعها المادي ، فتتجلى على وجه العموم في وعيها الاجتماعي ، وفي سيكولوجيتها بعض سمات خاصة : الحساسية والضغينة تجاه المجتمع ، الحسد والكراهية الطبقية حيال من تتوفر لهم اسباب الحياة المستقرة المأمونة، وعلى الاخص من يرتع منهم في رغد البحبوحة والسلطة ، والنهم الفردي النزعة الى الرغد الشخصي والسلطة الشخصية . وكانت هذه الفئات الفقيرة كثيرة التعداد بين الشرائح السفلى من المجتمع ، لكنها كانت ذائعة ايضا بين الناس الذين أتيح لهم قدر من التعليم والثقافة .

لقد هزت ثورة اوكتوبر وأيقظت سياسيا جميع الشرائح الدنيا في المجتمع الروسي ، وبوجه خاص الشرائح المدقعة

«المخلّعة طبقيا» التي انشقت وانقسمت على نفسها . فقد انتمى شطر منها او جدد انتماءه الى المعسكر الرجعي ، متأملا ان يعوم من جديد في حال انتزاع النصر . اما الشطر الآخر ، الاقل تعدادا بكثير ، فقد دلل بالعكس على نشاط مدني خارق للمألوف في المعسكر الثوري . وانما من هذا الوسط تحدر المشاركون في الاحداث الثورية الذين تميزوا ، في أحرج لحظات المواجهة والصدام ، بمغالاتهم السياسية المتوحشة ، «المتطرفة ثوريا» ، والذين دللوا فيما بعد ، حين هدأت الاحوال نسبيا في مرحلة البناء المدني ، على ظمأ خفي او سافر الى السلطة ، وعلى وصولية سياسية ما كانت تنكص في كثير من الاحيان عن اي وسيلة ، كائنة ما كانت ، وعلى نزوع الى «حب القيادة» للقيادة ، وأخيرا على اعمال وأنماط حياة تفاخرية تبجحية .

ان الضعف العددي النسبي لكوادر الحزب البروليتارية الحقة بالمقارنة مع المساحات الشاسعة لبلاد فلاحية وبورجوازية صغيرة في جوهرها قد اتاح لأولئك الثوريين المتطرفين الشرهين الى السلطة امكانية التسرب الى صفوف الحزب والتسلل الى السلطة ، فصاروا في كثير من الاحيان «عنصرا» فعالا للغاية ، بل قياديا ، في صفوفه . وكانوا هم الذين تولوا ، في غالب الاحيان ، تحقيق الثورة على الصعيد المحلي ، فصادروا وأعدموا الملاّك العقاريين والبورجوازيين ، ومن بعدهم الكولاك .

وقد امكن لقادة المناطق الطرفية هؤلاء ان يترقوا في

الرتب لما ذاع عنهم من صيت ثوري ، فتسللوا الى جهاز الحزب والدولة المركزي . وقد ظهر تدريجيا الى حيز الوجود ، الى جانب «الاسلوب» الثوري الحق في القيادة المتميز بالبساطة والتواضع ونكران الذات ، وهو الاسلوب الذي كان لينين وسفيردلوف ودزرجنسكي وكيروف من خيرة ممثليه ، ظهر الى جانبه اسلوب آخر له سمات مختلفة داخل الحزب . وكان لذلك دوافع تاريخية محددة .

الدولة والثورة

كان على الحزب الشيوعي البلشفي ، في هذا المناخ من تداخل الميول والاتجاهات الطبقية وتشابكها داخل المعسكر الثوري ، ان يطرح على بساط البحث وأن يحل معضلتين رئيسيتين ارتهن بهما مستقبل البلاد . وعلى عاتق لينين وقعت مهمة التفسير النظري لهاتين المعضلتين ، شأن العديد من المعضلات الاخرى .

خصص لينين لدراسة المعضلة الاولى ـ معضلة المبادىء الناظمة للبناء الاشتراكي في قطر متأخر يغلب عليه الطابع الفلاحي ـ كراسة خاصة ، **الدولة والثورة** ، كتبها في آب ـ ايلول ١٩١٧ . وقد انحى فيها باللائمة على الاشتراكية ـ الديموقراطية الانتهازية تحديدا لما تدلل عليه من رغبة في اللف حول أطروحات ماركس وانجلز الاساسية في مسائل الدولة وتجاهلها .

هذه الاطروحات هي كالآتي : لا يجوز للبروليتاريا التي حققت الثورة البروليتارية ان تكتفـــي بسحق سلطـــة البورجوازية وبالاستيلاء على آلة الدولة وبوضعها فـــي خدمتها ، بل ينبغي عليها ايضا ان تقيم دولة جديـــدة «تتلاشى» تدريجيا فيما بعد . وحين عالج لينين هـــذه المشكلة كان واقعا تحت تأثير الاقتناع بأن الثورة العالميـــة وشيكة : «هل يمكن ان تدوم سيطرة الرأسماليين علـــى الارض اذا سلم ... الشعب الروسي كل سلطة الدولة الى سوفييتات النواب العمال والفلاحين ؟» (**رسائل من بعيد**). ولهذا السبب محض لينين ثقة زائدة عن الحد لأطروحـــة انجلز حول الجدل التاريخي للدولة ، وكذلك للتعميم الذي استخلصه ماركس من تجربة **العامية** ، تلك التجربة التي كانت ، قطعا ، قصيرة الأمد وغير كافية .

يشرح لينين ويطور فكرة انجلز القائلة ان الدولـــة البورجوازية ، المكونة بصورة رئيسية من «فصائل خاصة من الجنود المسلحين» ، يجب ان تستبدل بدكتاتوريـــة البروليتاريا الثورية المحققة عن طريق «تنظيم عسكـــري مستقل ذاتيا للسكان» ، اي عن طريق «العمال المسلحين»، وانه اذا ما «قمعت غالبية الشعب بنفسها مضطهديها» فلن تعود ثمة حاجة الى شكل خاص لذلك القمع . وكانت هذه الفكرة بمثابة انبعاث ، على صعيد الحياة السياسية وعلى مستوى جديد وأعلى ، للديموقراطوية البدائية التي وجدت فيما غبر في المجتمع اللاطبقي . وفي مقطع لاحق يشرح

لينين ويطور فكرة قديمة لماركس عن استبدال «الآلـــة البيروقراطية» ، المؤلفة من موظفين مميزين ومتعالين علـى الشعب ، بجهاز جديد يتيح امكانية «تقليص تدريجي حتى درجة الصفر لكل وظيفوية» . وكان ماركس يرى ان ذلك ممكن لان وظائف التسيير ، في ظل النظام الرأسمالــي بالذات ، قد تبسطت الى حد كبير ، ولانه سيكون من المحتم عندئذ تحويل وظائف خدمات الدولة الى «محض عمليات تسجيل وتدوين ومراقبة ستكون في متناول الغالبيـــة الساحقة من السكان» . وقد ارتأى لينين ، بالاستناد الى تجربة العامية كما كان قد فعل ماركس ، ان ذلك ممكـن التحقيق بشرط ان «يكون المستخدمون قابلين للرفت في كل لحظة وأن يؤدوا خدمات مسؤولة مقابل أجور تعادل ما يتقاضاه العمال» . واذا ما جرى العمل بمثل هذا النظام، فان جميع وظائف التسجيل والمراقبة المبسطة ستشغل من قبل الجميع بالتناوب ، وستصبـــح فيما بعـد عادة ، وستتلاشى من الوجود بصفتها وظائف خاصة موقوفة على فئة خاصة من الناس . ولقـــد كان انجلـز يتصور ان «الوظائف الاجتماعية ستفقد طابعها السياسي وستتحـول الى محض وظائف ادارية ، مكلفة بالسهر على مصالـــح المجتمع» .

ان هذا التصور لمبادىء سلطة الدولة وتسيير دفـــة البلاد يتناقض لدى لينين واضح التناقض مع المهام التي تفرض نفسها بصورة حتمية على البروليتاريا «المنظمة في طبقة سائدة» : «ان البروليتاريا بحاجة الى سلطة دولة ،

الى تنظيم قسري يتيح امكانية قمع مقاومة المستغلين وحكم الكتلة الساحقة من السكان : الفلاحين والبورجوازية الصغيرة وشبه البروليتاريا ، وأخيرا تنظيم الاقتصاد الاشتراكي» . ويكتب في مكان آخر : «ان مصادرة الرأسماليين ستؤدي لا محالة الى تطور هائل في قوى المجتمع البشري المنتجة» .

والحق انه ليصعب على المرء ان يتصور كيف يمكن «قيادة» كل تلك الكتلة البروليتارية من السكان و«تنظيم» التطور الهائل لقوى المجتمع البشري عن طريق «المراقبين والمحاسبين والتقنيين» وحدهم ، اذا كان التغيير الدائب للمستخدَمين إلزاميا ، واذا كان الجميع يؤدون وظائف التسيير بالتناوب، بدون استخدام دائم للسلطة السياسية، بدون ادارة سياسية ، بدون قادة متسلحين بتجربة خاصة في القيادة . وحتى اولئك «العمال المسلحون» ، الذين يمثلون الاساس الذي تقوم عليه دكتاتورية البروليتاريا ، لا يستطيعون التحول بالتناوب وهم مسلحون بالبنادق بغية «قمع البورجوازية» . ولا مناص لهم من تنظيم انفسهم في منظمات مسلحة خاصة مكلفة بالسهر على الامن السياسي الداخلي ، هذا اذا لم نشأ ان نتكلم عن الجيش الذي يذود عن حياض الدولة الجديدة ضد احتمال عدوان خارجي .

والتناقض أشد وأعمق ايضا بين المثل الاعلى المنادي ببعث الديموقراطية البدائية وبين التفسيرات التي قدمها لينين عن طبيعة «المرحلة الاولى من الشيوعية» ، عن

التنظيم الاشتراكي للمجتمع : «لا يمكن اذن للمرحلة الاولى من الشيوعية ان تحقق العدالة والمساواة ؛ فستظل هناك فروق في الثروة ، وفروق ظالمة ... توزيع السلع الاستهلاكية «حسب العمل» (لا حسب الحاجات) ... والحقوق البورجوازية التي لا يُبطل العمل بها كليا بل جزئيا» . وليس ذلك لان «... الافراد غير متساوين فحسب : فواحدهم اقوى وواحدهم الآخر أضعف ، واحدهم متزوج وواحدهم الآخر غير متزوج ، لواحدهم كثير من الاولاد ولواحدهم الآخر قليل من الاولاد ، الخ . وانما بالاحرى لان نوعية العمل بالذات متفاوتة بالحتم والضرورة : فبعضهم يشغل مناصب قيادية ، وبعضهم الآخر يبقى عاملا بسيطا . وطبيعي ان جزاء عملهم سيكون متباينا : فالقادة لن يستطيعوا ولن يريدوا الاكتفاء بأجور كأجور العمال» . وحين يكتب لينين في مقطع لاحق ان «... الدولة لم تختف بعد تماما لان «الحقوق البورجوازية» التي تكرس التفاوت الفعلي لا تزال تحظى بالحماية» ، فهذا لا يعني بالبداهة ان الدولة ستحفظ حصة الاسد للعزاب الميسورين والشغيلة من أرباب الاسر الصغيرة في مواجهة متطلبات المتزوجين من الرجال وأرباب الاسر الكبيرة . وانما ستصون رغد عيش القادة والزعماء في مواجهة متطلبات العمال البسطاء .

لقد ازاح الواقع الروسي النقاب بسرعة ، بعد اوكتوبر، عن مدى وأهمية امكانية الانتقال السريع للمجتمع الى شيء ما يشبه «الديموقراطوية البدائية» . فقد انشأت سوفييتات

النواب العمال والجنود على الفور «لجانا تنفيذية» في المحافظات والاقاليم ، تتألف من موظفين جدد في معظمهم، لكن بينهم ايضا عدد من «القدامى» ، يعملون تحت قيادة اداريي الحزب الذين شغلوا بالبداهة بعض الوظائف السياسية . وقد ألفت مؤتمرات السوفييتات حكومة مركزية ، تضم عددا كبيرا من «المفوضيات» التي تتألف بدورها من هيئات بيروقراطية اشد تعقيدا وأثقل وطأة . كذلك انشئت في عموم روسيا التشيكا والغيبيهو (١) اللتين كانت مهمتهما صيانة النظام الجديد لا من الثورة المضادة البورجوازية فحسب ، بل ايضا من كل تطاول . وقد ساهم هذا كله بلا ادنى ريب في النماء السريع للبيروقراطية في جهاز الدولة الجديدة .

المناقشة بصدد النقابات

كان على لينين ان يأخذ بعين الاعتبار جميع هذه الظواهر حين تصدى الحزب ، بعد ثلاثة أعوام من ثورة اوكتوبر ، للمعضلة الثانية ، معضلة مبادىء تسيير الصناعة المؤممة . وقد طرحت هذه المعضلة على بساط البحث اثناء

---

١ ـ اي الشرطة السرية والسياسية . «م»

مناقشة اشتعلت واحتدمت بصورة عفوية : المناقشة بصدد النقابات ودورها في تسيير الانتاج ، اولا في عامي ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ ، ثم في المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) في ايار ١٩٢١ . وقد اثارت المشكلة «المعارضة العمالية» التي كان يتزعمها شليابنيكوف ، ثم تناولها بالمعالجة كل من تروتسكي وبوخارين . وقد وقف لينين موقف المعارض لتصوراتهم ومقترحاتهم التي وصفها بأنها فوضوية ــ نقابية (١) . وأدان بالخطل الاطروحة الاساسية لـ «المعارضة العمالية» التي تنادي بأن «تسيير الاقتصاد القومي يجب ان يكون بين يدي مؤتمر منتجي روسيا ، المتجمعين في نقابات انتاجية تتولى انتخاب هيئة مركزية تشرف على مجمل اقتصاد الجمهورية القومي» . وأبان لينين ان هذه الاطروحة تنحي جانبا «الدور القيادي والتنظيمي للحزب حيال نقابات البروليتاريا ، والدور القيادي والتنظيمي للبروليتاريا حيال الجماهير الكادحة شبه البورجوازية الصغيرة مباشرة» . وقال انه لا وجود لشغيلة بوجه عام ، وانما لصغار مالكي وسائل الانتاج من جهة ، وللعمال الاجراء من الجهة الثانية ، وان انتخاب الشغيلة لهيئة تشرف على الاقتصاد برمته لا بد أن يؤدي

---

١ ــ راجع كراس لينين : «نقد المعارضة العمالية» ــ دار الطليعة ــ . «م»

الى اعادة سلطة الرأسماليين والملاك العقاريين وملكيتهم .

وقد عارض لينين هذه الاطروحات بتصور آخر لمبادىء تسيير البلاد ، وللمكانة التي ينبغي للنقابات ان تحتلها فيه ، وللدور الذي يتوجب عليها ان تؤديه . ففي رأيه ان «الحزب يمتص ، اذا جاز التعبير ، طليعة البروليتاريا» . وهو يقوم بأداء جميع وظائف الدولة «بواسطة جهاز السوفييتات» . و«النقابات تحقق الارتباط بين الطليعة والجماهير» . ولا يجوز للنقابات في الوقت الراهن ان تكون سوى «مشاركة ... في جميع الاجهزة المحلية والمركزية لتسيير الصناعة» . بيد انه ينبغي عليها مع ذلك ان تسعى الى ان تركز فعلا بين يديها تسيير الاقتصاد القومي برمته . وهي لن تصل الى هذه الغاية ، في اعتقاد لينين ، الا في غضون خمسة عشر عاما او عشرين عاما ، وربما اكثر .

على ان لينين كان يعي ويدرك تماما وجود البيروقراطية في الجهاز السوفياتي : «ان برنامج حزبنا ... يوضح ان دولتنا دولةعمالية **منطوية على تشويه بيروقراطي**». ويترتب على ذلك ان على النقابات «ان تدافع عن المصالح المادية والمعنوية للعمال ضد دولتهم» . ويضيف في موضع آخر قوله ان هذا النضال سيستغرق «عشرات السنين» وسيكون «مضنيا للغاية» .

هكذا أماط النقاش حول النقابات والمؤتمر العاشر للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) اللثام عن وجود ثلاثة اتجاهات متباينة في تنظيم المجتمع السوفياتي وفي دولته:

أ ـ الاتجاه الفوضوي ـ النقابي ؛ ب ـ اتجاه الحزب ـ النقابات ، وبعبارة اخرى ، المركزية الديموقراطية ، لا بالاقوال وانما بالافعال ، ج ـ اتجاه الحزب ـ البيروقراطية الذي وضع سلطة الدولة فوق المجتمع ، فوق الجماهير الكادحة .

اي الاتجاهات كانت له الغلبة ، بل حتى الهيمنة ؟ ان الاتجاه الفوضوي ـ النقابي المدحوض ايديولوجياً ، المدان من قبل قيادة الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) ، قد سدت في وجهه سبل التطور . بيد ان لينين كان على خطأ باعلانه ان سيطرة هذا الاتجاه كانت ستؤدي الى اعادة ملكية الرأسماليين والملاك العقاريين . فقد كان هؤلاء بتعريفهم القديم ، تعريف ما قبل الثورة ، قد انقطع دابرهم تماما . ولو كان مؤتمر المنتجين في روسيا تولى بنفسه تسيير الاقتصاد القومي ، لكان العنصر البورجوازي الصغير في الثورة تغلب تدريجيا على العنصر البروليتاري . ولكان زعماء الفلاحين الميسورين ، والمزارعون الذين لم يكن لهم من وجود الا بالقوة والفرض ، و«الترودوفيكيون» في المقام الاول ، نحوا الشيوعيين عن سدة السلطة عن طريق ديموقراطي لا غبار عليه ، بل احيانا بمساعدة «الخنق» . ولكانت روسيا سارت ، منظورا اليها بمعزل عن العلاقات الدولية بين ١٩٢٠ و١٩٤٠ ، في **«البرنامج الزراعي للاشتراكية ـ الديموقراطية»** . لكن ذلك كان سيستغرق عشرات السنين من التطور المستقل ذاتيا ، وهذا كان من

المستحيلات .

وبالمقابل ، لعب اتجاه الحزب ــ النقابات ، وبعبارة اخرى ، المركزية الديموقراطية في الدولة السوفياتية كما نص عليها من البداية دستور الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) ــ ولا يزال ينص عليها قولا ولفظا حتى يومنا هذا ــ لعب دورا بالغ الاهمية في التربية الديموقراطية لجماهير روسيا التي كانت لا تزال تئن حتى ذلك اليوم تحت نير الاوتوقراطية الاقطاعية وتجهل جهلا مطبقا المبادىء الديموقراطية . ولو كتبت الغلبة لهذا الاتجاه لكان الشكل الاشتراكي لوجود المجتمع الروسي امتلأ تدريجيا بمضمون اشتراكي . ولكان تم في هذه الحالة شيء اكثر من مجرد تأميم وسائل الانتاج الرئيسية وتشريكها لصالح الجماهير الكادحة . ولكان امكن الوصول تدريجيا الى مبادهة فعالة وديموقراطية للشغيلة ، الى مشاركتهم المباشرة ، الواعية ، الحرة ، في تكوين سلطة الدولة ، وفي انتخابات قيادة الحزب والدولة على رأس البلاد ، وكذلك الاجهزة المركزية والمحلية للسلطة من خلال رقابة يومية ولا محدودة على هذه الاخيرة ، ومن خلال مناقشة حرة وعامة وعلنية لجميع الامور والمسائل التي تهم المجتمع ، دونما اعتبار للشخصيات ، ومن خلال التكوين الحر لمختلف الروابط والجمعيات الاقتصادية والسياسية والثقافية ، ومن خلال المشاركة الفعالة في عرض هذه او تلك من المشكلات الايديولوجية وحلها . وكان من الممكن الوصول الى هذا كله تدريجيا ايضا ، على مدى عشرات

السنين ، في مناخ من الاستقلال القومي ، وبمنأى عن كل تهديد مهما كانت طبيعته وعن كل عدوان من الخارج . ولكانت قامت في هذه الحال الاشتراكية الحقة الاصيلة . ولكن هذه الشروط لم تكن متوفرة في الواقع .

لقد سارت الامور ، في الحقيقة ، في منحى آخر . فما كان لينين يطلق عليه اسم «التشويه البيروقراطي للدولة العمالية» سرعان ما كتبت له الغلبة ، ثم الهيمنة ، في تسيير دفة البلاد . ولينين نفسه هو الذي اصدر تعليماته بعد عشرة شهور من المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) ، في قرارات اللجنة المركزية للحزب **(دور النقابات ومهامها في شروط السياسة الاقتصادية الجديدة)** ، بوجوب اتباع مبدأ القيادة الوحيدة في انشاء ادارات المشاريع ، وبوجوب قيام هذه الادارات بذاتها بتحديد معدل الاجور ، الخ ، وأشار الى ان «**كل تدخل** مباشر من قبل النقابات في تسيير المشاريع لا بد ان يعتبر على هذا الاساس غير مقبول البتة وضارا» ، وان على النقابات ان تقدم مرشحيها الى الاجهزة الادارية وأجهزة الدولة ولكن حق التقرير يجب ان يبقى محصورا بالاجهزة الاقتصادية ، وأن «واحدة من اهم مهام النقابات تكوين وتخريج اداريين من بين صفوف العمال ، وبوجه عام من بين صفوف الجماهير الكادحة» . وكان ذلك بمثابة اطلاق للعنان على نطاق واسع لأساليب «التيت تيتيسش» (في وسعي ان اعطي موافقتي مثلما في وسعي ألا اعطيها) في

تسيير الصناعة برمته ، من القمة الى القاعدة .
هكذا يكون اتجاه الحزب ـ البيروقراطية في تسيير الصناعة ، وبالتالي الدولة ، قد برز وتعزز منذ مطلع العشرينات ، يوم كان لينين لا يزال حيا وتحت قيادته ، وتمكن في خاتمة المطاف من التغلب على اتجاه الحزب ـ النقابات .

المشكلة الفلاحية

بعد اندحار التدخل الاجنبي ونهاية الحرب الاهلية ، انطرحت على بساط البحث مشكلة ثانية لا تقل اهمية : مشكلة العلاقات بين المدينة والريف ، بين الدولة العمالية وغالبية سكان البلاد ، الفلاحين ، مشكلة تحديد السلوك الواجب اتباعه تجاه الجماهير الفلاحية ، والطريقة الواجب استخدامها لحث هذه الجماهير على نهج طريق التطور الاشتراكي تحت قيادة البروليتاريا .
كانت الحكومة السوفياتية قد فكرت بادىء الامر ، بعد عقد صلح بريست ـ ليتوفسك ، بتنظيم «تبادل واسع للبضائع» بين الصناعة الاشتراكية وبين الفلاحين من صغار المالكين . بيد ان ذلك لم يثمر شيئا لان الصناعة المؤممة لم تتطور البتة تقريبا اثناء الحرب الاهلية ، بل تراجعت وتقهقرت بنتيجة فقدان الوقود والمواد الاولية . ثم ان السوق الفلاحية بوجه خاص فرضت على السلطة

السوفياتية ، اثناء مرحلة «المصادرات» ، أن تقيم مع الفلاحين علاقات مبنية على اساس شراء البضائع ومبيعها.

لم يكن الهدف الاول للسياسة الاقتصادية الجديدة ، التي نادى بها لينين ، تقديم التنازلات للبورجوازية المدينية لكي تنشىء صناعة خفيفة فحسب ، بل كان ايضا ، وعلى الاخص ، اضفاء الصبغة الشرعية على العلاقات السلعية البورجوازية بين الدولة السوفياتية والجماهير الفلاحية . وكان لينين قد رأى في ذلك رافعة فريدة قد تتيح امكانية وضع الريف الروسي واطلاقه تدريجيا على السكة الاشتراكية . وقد رسم للحزب مهمة «تحويل روسيا **النبمان** (١) الى روسيا اشتراكية» . ولهذه المشكلة بالتحديد كرس واحدا من آخر مقالاته : **حول التعاون** ، تكلم فيه عن «التجارة» و«العمليات التعاونية» التي توجب على تعاونيات الحزب ان تضم «مجمل الفلاحين الصغار» عن طريق تقديم الفوائد والمزايا لهم . وأشار لينين في الوقت نفسه الى ضرورة تحقيق «الثورة الثقافية التي تفرض الان نفسها على الجميع» . والأجل التاريخي الذي ستستغرقه كل هذه السيرورة سيكون طويلا : «اذا احسنّا تدبير الامور أمكننا ان نجتازها (تلك المرحلة التاريخية) في عشر او عشرين سنة» . لكن في حال تدخل اجنبي ،

---

١ ــ اي روسيا السياسة الاقتصادية الجديدة . «م»

سيقتضي الامر ثلاثين عاما ونيفا . ولا يتكلم لينين البتة ، نظير ستالين ، عن ضرورة «تجميع سريع ، شامل ، بواسطة العنف ، للمستثمرات الفلاحية الصغيرة والمتوسطة ، مع تصفية الكولاك في الوقت نفسه كطبقة» .

هكذا يكون لينين قد أقلع عن التفكير ، في السنوات الاخيرة من حياته ، بامكانية انتقال سريع للمجتمع الروسي الى الديموقراطوية البدائية ، وتأسيس دولة «تشرع على الفور بالاضمحلال !» . لكنه كان يتصور رغم ذلك أن بقرطة الجهاز السوفياتي ظاهرة مؤقتة ، وان النقابات ستتوصل في غضون خمسة عشر عاما او عشرين عاما ، رغما عن كل شيء ، الى «تركيز» قيادة مجمل الاقتصاد القومي بين أيديها ، وانه سيكون في الامكان ، في غضون عشرين عاما او ثلاثين عاما ، جمع الفلاحين بأسرهم في التعاونيات سلميا ، علاوة على اجتياز مرحلة «الثورة الثقافية» . ومن اكثر من زاوية كان لينين حقا «حالم الكرملين» .

الاسلوب الستاليني

لم يتحقق شيء مما كان لينين قد ارتجاه . وقد دلل ستالين ، الذي خلفه في قيادة الحزب ، اكثر فأكثر على «أسلوب» في القيادة مختلف . ولم تكن السمات النمطية لطباعه الاجتماعية الحس الديموقراطي ونكران الذات والتفاني في نشدان هدف من الاهداف ، بل حب القيادة

والتطرف الثوري والولع بالسلطة . ثم انه ما كان يملك حس الدولة ولا ملكة التقييم الصحيح للموقف الدولي . وبعد ثلاثة أعوام من وفاة لينين ، شرع يحث الحزب على وضع الخطط لبناء سريع للصناعة الثقيلة .

كانت خطة غوبرو (١) ، التي وضعت عام١٩٢١ بمقتضى تعليمات لينين والتي نالت موافقته التامة ، تشدد اللهجة على «كهربة البلاد بأسرها» . وكانت تتوقع ان تنمي الصناعة التحويلية خلال عشر سنوات بمعدل ٨٠ بالمئة والصناعة الاستخراجية بمعدل ١٠٠ بالمئة . وكان يبدو في تلك الفترة انه من السابق لأوانه التفكير بانشاء فروع كاملة من الصناعة الثقيلة لم يكن لها وجود في روسيا القيصرية. وقد تصدت القيادة الستالينية بسرعة لتخطيط مشاريع السنوات الخمس. وقد وضع المشروعالاول موضع التنفيذ عام ١٩٢٩ ، الامر الذي اتاح لروسيا امكانية التحول السريع الى بلد اشتراكي .

وبالرغم من ان ذلك اقتضى استهلاك كميات هائلة من القوى والطاقات البشرية ، وتخطي عقبات مادية كبيرة وحل مشكلات تنظيمية ضخمة ، وبالرغم من ان الصناعة الثقيلة

---

١ ـ غوبرو: لجنة الدولة لكهربة روسيا كان يرئسها كرجيانوفسكي. وكانت خطتها العظيمة للتنمية تستلهم قولة لينين المشهورة: «الاشتراكية هي سلطة السوفييتات زائد كهربة البلاد بأسرها» .

الجديدة قامت فيما بعد ، وابتداء من الخطة الخمسية الثانية بوجه خاص ، على اساس استغلال مئات الآلاف بل الملايين من الاشخاص الابرياء المفترى عليهم والمعتقلين والمنفيين الى معسكرات الاعتقال ، بالرغم من ذلك كله كان لتحقيق الخطط الخمسية الستالينية اهمية قومية مؤاتية وخيرة . فلو لم تمتلك الدولة السوفياتية صناعة ثقيلة متقدمة ، وفي المقام الاول صناعة دفاعية اتاحت امكانية تزويد الجيش في أجل وجيز بالكمية اللازمة من الاسلحة والدبابات والطائرات ، لما كان كتب الخلاص لروسيا لا باتساع اراضيها وترامي أطرافها ، ولا بالبرد والصقيع ، ولا بوعي الجماهير للخطر القومي المميت . ولكان الجيش الاحمر في هذه الحال قهر وغلب على امره ، ولكان الالمان وصلوا الى الاورال ، ولكانت القوى الديموقراطية في البلاد قد أفنيت عن بكرة ابيها ، ولكان نصف السكان لاقوا حتفهم في حمام من الدم . ولكانت روسيا عادت ، كما كانت ، قطرا نصف مستعمَر لا يقل فيه الوضع بشاعة وشناعة عما كان عليه في عهد نيقولا الثاني .

ان التدابير التي اتخذتها القيادة الستالينية ، ولاسيما تطوير البلاد من خلال «الطريق الروسي للانتقال الى الاشتراكية» ، أدت بالطبع الى تفاقم حاد للخلافات داخل الحزب ، ومن ثم الى انشقاق في الحزب الحاكم . فقد عزف عدد كبير من اعضائه ، وعلى رأسهم تروتسكي ، عن الايمان بامكانية انتزاع النصر عن ذلك الطريق للتنمية الاجتماعية . وارتدّوا جميعا ، بعضهم في وقت مبكر

وبعضهم الآخر في وقت متأخر ، الى التصورات الماركسية الاصولية عن الانتقال الى الاشتراكية عبر رأسمالية قومية ناضجة . ومثلهم مثل لينين في أعوام ١٩١٧ ـ ١٩٢١ ، عادوا يعقدون الآمال على ثورة بروليتارية في بلدان «الرأسمالية الكلاسيكية» : الامر الذي بثّ فيهم عقلية انهزامية . ذلك ما كانه جوهر «المعارضات اليسارية» ، معارضة تروتسكي اولا ، ثم زينوفييف من بعده . وقد فصل المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) خمسة وسبعين من أنصارهما ، لكن ذلك لم يفت في عضدهما عن متابعة الكفاح ضد القيادة الستالينية.

اما «المعارضون اليمينيون» ، الذين كان يتزعمهم بوخارين وريكوف وطومسكي ، فكانوا يعبرون عن اتجاهات ايديولوجية مغايرة . فقد لبثوا في الظاهر على وفائهم للخطة اللينينية في تحويل الفلاحين بواسطة السياسة الاقتصادية الجديدة والتجارة والثورة الثقافية في الريف. هذا ما كانه بكل تأكيد معنى شعار بوخارين : «لندمج الكولاك بالاشتراكية» ، ومغزى خطة ريكوف المثنوية ، اذ كانا كلاهما يعطيان الاولوية لتطوير الصناعة الخفيفة بغرض تلبية طلبات الريف ، ولاسيما الشرائح الميسورة فيه . وقد فصل المعارضون اليمينيون بدورهم من الحزب (في عام ١٩٢٩) ، لكنهم تابعوا هم ايضا كفاحهم السياسي ضد «الخط العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) » .

من الصعب ان نحدد اليوم الى اي حد نحولت تلك المعارضات الى أشكال سرية للكفاح ضد قيادة الحزب ، والى اي حد كان يمكن لهذا الكفاح ان يشكل خطرا على وجود الدولة الجديدة . لقد كان الخطر قائما في ارجح الظن ، ولهذا لجأت القيادة الستالينية الى استخدام القمع الضاري الوحشي ضد قادة تينك المجموعتين . بيد ان أشكال هذا القمع كانت بذاتها اساءة استعمال بالغة الخطورة .

كان من الممكن ان يكون الشكل الرئيسي للنضال هو تقديم اوسع وأصرح تفسير ممكن للشعب عن الماهية العميقة للخلافات التي تقسم الحزب بصدد مشروعية الخط العام المتبنى بهدف تدعيم المكاسب الثورية وتطويرها ، وتبديل قناعات الفئات المنشقة عن طريق الدحض والتفنيد النظري لتصوراتها ومطالباتها . هذا بالتحديد ما كان سيفعله لينين لو كان بقي على قيد الحياة حتى منتصف الثلاثينات .

لكن بدلا من ذلك ، نهج ستالين ، الذي كان ينهشه الظمأ الى السلطة وقسوة طباعه ودهاء خلقه ، طريق القمع العسفي : اتهامات ملفقة ، محاكمات مبنية على إقرارات كاذبة منتزعة بالتعذيب ، وأخيرا اعدام رفاقه من صفوة الشيوعيين القدامى .

وبمحاكمات ١٩٣٥ ــ ١٩٣٦ بدأت مذبحة خيرة كوادر حزب لينين البلشفي . وكان نظام القمع هذا يجرد القيادة الستالينية من الهيبة المعنوية امام الرأي العام في البلاد بأسرها . وهكذا ولدت سمة بالغة الخطورة والضرر من

سمات الحياة الاجتماعية السوفياتية ، سمة لم تتمكن وفاة ستالين بالذات من استئصال شأفتها : رغبة السلطة في ان تخلق لنفسها هالة في نظر الشعب عن طريق الكذب والتكتم على العيوب والنواقص والمبالغة في الانتصارات . ومع هذه الممارسات على وجه التحديد ولدت وتطورت «عبادة شخصية ستالين» ، التي تدين بأصلها الاجتماعي لشرائح البروليتاريا الدون او الرثة . وقد انحط هذا الاسلوب الى تمجيد وتزلف وممالقة ، بحِكَمه المقتضبة والمتكلفة ، وافعاله المستبدة ، ومختلف ضروب زخرفته ، ولوحاته وتماثيله التملقية الخانعة . وقد تمت تصفية اسلوب القيادة البروليتاري الذي أرسى لينين أسسه ، وان حاكى ستالين وبطانته بساطته وروحه الديموقراطية محاكاة تدعو الى السخرية .

لقد عرف ستالين كيف يتخلص ، في أتون القمع الذي مارسه ضد معارضيه ، من آخر ممثلي أسلوب القيادة اللينيني : كيروف ، كويبيتسيف ، اوردجونيكدزه ، وغيرهم وغيرهم من القادة . وقد حاول هؤلاء سرا وخفية ، في المؤتمر السابع عشر للحزب وخارج المؤتمر ، ان يخلعوا ستالين من منصبه كأمين عام للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) ، لكن هذه المحاولات باءت بالفشل .

وقد انزل ستالين ، الذي ثارت ثائرته من هذا العمل، والذي ما كانت تعوزه الدوافع ليعد نفسه مبدع «الخط العام للحزب» وملهمه ، والذي وجد نقطة ارتكاز متينة في

الجهاز البيروقراطي الذي كان قد توطدت دعائمه يومئذ ، انزل بخصومه مختلف ضروب القمع السافــر والمستتر ، دافعا بعضهم الى الانتحار . وفي أعقاب ذلك ، وبمساعدة بيريا ، احاط اقرب رفاقه ومعاونيه اليه : مولوتــوف ، فوروشيلوف ، كالينين ، جدانوف، برقابة بوليسية سرية. وكان وجود الحزب الشيوعي قد انتهى عمليا منذ اواسط الثلاثينات . فقد تحول الى جهاز حزبي تقوده بلا تمتمة او تذمر مشيئة السلطة العليا . ولم تعد المؤتمرات تعقد فــي مواعيدها النظامية : فقد تصرم اكثر من اربعة عشر عامــا بين المؤتمر السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر .

بقرطة الحزب

لم تكن العلة الاساسية لهذه التغيرات المشوومة فــي تنظيم الحزب الشيوعي الروسي (البشفي) وأسلــوب قيادته لا سمات طبع ستالين ولا حتى الاصل الاجتماعــي لهذا الاسلوب . فقد كــان السبب المباشر يكمــن في ان ستالين بات بملك ، منذ ان أعمل سيف التذبيح فــي كوادر القيادة اللينينية القديمة ، امكانية عدم التوجه الى الرأي العام ، والاعتماد بالمقابل على جهاز الحزب والدولــة البيروقراطي الذي أمسى يشكل منذ امد طويل القــوة السياسية الفعلية الوحيدة في طول البلاد وعرضها .

وهذا لأن مقترحــات لينين اثناء المناقشة بصــدد

النقابات ، والتي كانت قد أدرجت في دستور الحـــزب الشيوعي الروسي (البلشفي) (الذي استشهد به بالاصــل لينين) ، لم تطبق ولم تطور . فحتى تتاح للنقابات ، فــي غضون خمسة عشر او عشرين عاما ، امكانية عملية لتركيز قيادة مجمل الاقتصاد القومي بين أيديها ، كان لا بد ان يهيئها الحزب لذلك تدريجيا . وكان لا بد ان يكافح مكافحة فعالة تظاهرات البيروقراطية في مؤسسات الدولـــة ، و«مشرحة البيروقراطيين الشيوعية» ، واستبدادية القادة، والدواوينية ، الخ .

لكن بدلا من ذلك سار الحزب هو نفسه في طريــق البيروقراطية ، وتحول تدريجيا الى هرم تراتبي بيروقراطي كثير التشعب ، قائم على التبعية والانصيـــاع والطاعة : اللجنة المركزية لاتحاد الجمهوريات ، اللجان المركزيـــة للجمهوريات ، اللجان المنطقية ، اللجان الاقليمية ، لجــان المحافظات ، لجان الحزب في شتى المؤسسات . وسرعان ما تفتحت في قلب هذا الهرم التراتبي روح التشيع لدى القادة ، وتوقير الرتب ، والانصياع للرؤساء، الخ. وطبيعي ان النقابات ، المدعوة نظريا الى تربية اداريي الحـــزب وتخريجهم ، لم تتمكن من تجنب هذا المصير . فقد تحولت بدورها تدريجيا الى مؤسسات من نمط بيروقراطي تخلت نهائيا عن «الدفاع عن المصالح المادية والمعنوية للبروليتاريا ضد سلطة الدولة» .

بل انها ، على العكس من ذلك ، انقادت وراء مصالح

الدولة ، واقتصر دورها تجاه الشغيلة على الاهتمـــام بالحاجات المادية ، وفي المقام الاول حاجات الشغيلـــة المتنفذين ، وعلى جمع الاشتراكات . ولم تجرؤ مؤتمرات الحزب مرة ثانية قط على طرح مسألة دور النقابات في تسيير اقتصاد البلاد بأسرها . هكذا راح ستالين يجسد اكثر فأكثر ، ابتداء من الثلاثينات ، لا حزب البروليتاريا السياسي ، بل سلطة قيادة الحزب البيروقراطية علـــى البروليتاريا وعلى سائر الفئات الكادحة . وهذا ما اتاح له امكانية التخلص السريع والفظ من جميع اولئك الذيـــن كانوا يضايقونه .

الارستقراطية البيروقراطية

ما ارستقراطية الحزب البيروقراطية ، وأي مكان تحتله في بنية المجتمع السوفياتي ، ولمَ يتوجب ان تكون فـــي وضع متميز ، وكيف تحكم الدولة والشعب ؟ لقد كان من المتفق عليه ، وما زال من المتفق عليه الافتراض بأن سكان روسيا ينقسمون بوجه الاجمال ، بعد «تصفية الكـــولاك كطبقة» ، الى ثلاث طبقات غير متناحرة : العمال والفلاحين الكولخوزيين وموظفي الدولة . اما في الواقع ، فان هؤلاء الاخيرين لم يؤلفوا قط طبقة متجانسة .

فهناك ، من جهة اولى ، المستخدمون العاديون ، اعضاء الحزب ، غير المقلدين سلطة ما ، الذين لا يسوسون شيئا

او انسانا ، والذين لا يستطيعون ان يملوا اوامر او قرارات لها قوة القانون . وهناك ، من الجهة الثانية ، الموظفون المتنفذون ، الذين يشرفون على المنشآت والمؤسسات وفروع بكاملها من الصناعة ، وعلى السياسة والثقافة والحياة اليومية ، وأخيرا على الدولة كلها في علاقاتها الداخلية والخارجية وعلى الحزب برمته وعلى نشاطه كحاكم ومنظم . ولهؤلاء الناس القدرة على املاء اوامر وقرارات لها قوة القانون . وهم يؤلفون الشريحة السائدة في المجتمع الاشتراكي ، الشريحة التي توجه مختلف مجالات الحياة ، والمفوضة بمطلق السلطة . وتمسك ارستقراطية الحزب البيروقراطية ، التي تخضع لها جميع «عتلات» جهاز الحزب والحكومة ، بقوة الحسم والفصل . ويبدو ان ضرورة تأسيس نوع من السرية في قلب الشريحة السائدة قد رأت النور في مطلع الثلاثينات . ولم يكن ذلك في الواقع سوى خط فاصل بين قيادة الحزب البيروقراطية وبين سائر شرائح الشعب الاخرى . فهو يضمن لتلك القيادة البيروقراطية العزلة عن الخارج، واستقرارا داخليا، ويوفر للجهاز الحماية من كل حادث طارىء ، ومن كل تقلب ، ومن كل تدخل من قبل عناصر غير موثوقة وغير مضبوطة . هذا الوضع المميَّز للشريحة السائدة وجد تعبيره في العودة الى نظام **المدوَّنة** القيصري ، اي نظام وضع قوائم بأسماء المميَّزين من الافراد ، المحوضين ثقة الحزب السامية ، الذين يمكن ان يعهد اليهم بعمل مسؤول

ضمن نطاق الحزب او الدولة .

وبذلك يكون اعضاء الفبونة قد احتلوا وضعا مميزا بالنسبة الى جمهرة الشعب الشغيل . وبذلك تكون ارستقراطية الحزب البيروقراطية قد انعتقت من رأي الشغيلة العام واعتادت على ازدرائه . وصار نشاطها يجري ضمن دائرة منفصلة ، مستقلة بذاتها ، لا رقابة عليها لا من المجتمع ولا حتى من الحزب نفسه . وبديهي ان هذه الارستقراطية المتربعة على سدة السلطة بذلت كل ما في وسعها لتثبيت امتيازاتها الحقوقية غير المقر بها ، بل حتى أمتيازاتها المادية : وجود قانون ضمني يبيح لها استخدام ممتلكات شتى ، وبوجه خاص الممتلكات العائدة الى الادارة .

ويمكننا ان ندرج في عداد هذه المزايا اجرا مرتفعا ، و«مغلفات» من اليد الى اليد ، واقتناء سلع غذائية لا يمكن العثور عليها في المخازن والمتاجر ، ومطاعم خاصة ، وشققا واسعة ، وأحيانا مفروشة فرشا فخما ، وكذلك فيلات ريفية بحدائقها وأزهارها وملاعبها لكرة المضرب وأحواضها للسباحة ، علاوة على سيارات وسواق شخصيين ودارات استجمام فخمة .

ما هي أعمق الاسباب التي قضت على الجماهير السوفياتية الكادحة ، التي يقودها الحزب الشيوعي على طريق الانتقال الى اشتراكية فريدة خاصة لم تتوقعها الماركسية ، بأن ترزح في وقت مبكر للغاية ، في الاعوام التالية لوفاة لينين ، تحت سلطان اولئك الحكام اللامحدود؟

كيف تحول مبدأ المركزية الديموقراطية، المطبق في تنظيم المجتمع والمنصوص عليه مبدئيا في دستور الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي)، الى حبر على ورق ؟ لماذا ألغت مركزية قيادة الحزب الديموقراطية ، فلم تحافظ عليها خارجيا الا شكليا ؟ ان جذور تلك الاسباب تكمن في «الطريق الروسي للانتقال الى الاشتراكية» ، هذا الطريق الذي نجم عن وضع ١٩١٧ الثوري .

ان روسيا ، تلك البلاد الشاسعة المترامية الاطراف ، المتأخرة اقتصاديا ، المؤلفة من غالبية ساحقة من الفلاحين والبورجوازيين الصغار ، انتهت ، بعد ان طوحت بحكامها القدامى لانحطاطهم وعجزهم التامين ، الى فوضى اقتصادية شاملة ، واصطدمت حين تطلعت الى التطور بمصاعب منقطعة النظير . وكان عليها ، حتى تنهض باقتصادها وتكفل له التقدم المطرد السريع ، وحتى تسحق مقاومة البورجوازية الريفية الرجعية ، وحتى تقاوم بمفردها وهي المطوقة بمحيط رأسمالي بالغ القوة والخطورة ، كان عليها ان تبذل جهودا جبارة على صعيد المركزة والتنظيم ، وأن تمتلك موارد مادية هائلة . وكانت الحاجة الآسرة ، تحت طائلة الموت ، الى تنمية اقتصادية متسارعة ، كما كان المناخ الدولي الصعب للغاية يقتضيان تنظيما ممركزا يتنافى مع سيرورة طويلة من التربية والديموقراطية الاشتراكية مثلما يتنافى مع «دمج تدريجي للكولاك بالاشتراكية» . ومن وجهة النظر هذه ، كان ستالين على حق في اعادة النظر

في خطط لينين وبوخارين وفي وضع حد سريع للسياسة الاقتصادية الجديدة . لكن بسبب ذلك على وجه التحديد امكن ان يتقدم بخطى حثيثة نشوء التراتبية داخل الحزب والحكومة ، تراتبية كانت على درجة فائقة من القسوة والوحشية .

بيد ان ذلك لم يكن يعدو كونه نظام العتلات او الروافع الذي لا غنى عنه للتسيير الاداري المركز . والحال ان المطلوب لم يكن الحكم والتسيير فحسب ، بل ايضا بناء اقتصاد البلاد على أسس جديدة . وكان النهوض بالصناعة وإعالة الجيش وصيانة الجهاز ، الخ ، تكلف غاليا جدا . لكن اعادة تنظيم الزراعة وانشاء عدد كبير من الفروع الاقتصادية الجديدة ومن المعاهد العلمية الجديدة كانا يكلفان اكثر ايضا .

ولما كان من المتعذر الحصول على قروض من الخارج، فقد كان لا مناص من ابتزاز تلك الموارد المالية من السكان، لا عن طريق القروض الداخلية فحسب ، وانما ايضا، وقبل كل شيء ، عن طريق الاستغلال المباشر لعمل العمال والفلاحين والمستخدمين . لقد اقتضى نشوء النظام الرأسمالي «تراكما شخصيا» ؛ كذلك اقتضى نشوء الاشتراكية في بلد متأخر ومفلس مرحلة مماثلة . وقد كان لقانون تملك الدولة لفائض القيمة دوره المباشر في الصناعة .

أكد ستالين عن خطل في كراسته «**الاسس الاقتصادية للشيوعية**» ان مقولة القيمة لا يعود لها من وجود في ظل

النظام الشيوعي . وكان يقصد «القيمة التبادلية» المتحققة في العلاقات البضاعية . وفي الواقع ، ومهما تكن الطريقة التي تتظاهر بها قيمة الناتج ، فانها تقاس بكمية قوة العمل المنفقة لانتاجه ، وعليه ، ثمة ارتباط موضوعي تماما بين العمل وبين نتائجه المادية .

لهذا بالتحديد لا يمكن البتة لفائض القيمة ان يزول ويضمحل . فلو أقلع المجتمع في ظل النظام الشيوعي عن حساب سعر كلفة انتاج هذا الناتج او ذاك ، لألقى بنفسه في سديم من الفوضى الاقتصادية . ففي جميع مراحل الانتاج الاجتماعي لا تظل القيمة التبادلية للناتج هي وحدها القائمة ، بل يظل قائما معها فائض القيمة المتولد في سيرورة الانتاج . وكلما احتوى العمل الانتاجي على المزيد من العمل الفكري والعلمي والتقني ، خلق المزيد من النواتج التي يتجاوز سعرها نفقات اعادة تكوين قوة عمل العامل ، وكذلك النفقات التي يعيد عن طريقها مالك المنشأة الاشتراكية انتاج رأسماله . واذا كان الناتج يحظى بطلب مناظر في المجتمع ، ارتدت المسألة كلها الى ما يلي : في اي ايد يبقى فائض القيمة ؟ أفي يدي العامل نفسه اذا كان هو المقاول الصغير ام في أيدي زمرة الملاّك الذين يشغّلون العامل : روابط صغار المنتجين ، او المقاول الخاص الكبير في الدولة البورجوازية ، او اخيرا الدولة الاشتراكية ؟

ان الحالة الاخيرة هي القائمة في المجتمع السوفياتي ، في صناعته الكبيرة . فالدولة المركزة ، المساسة من قبل

الحزب والبيروقراطية ، تتملك ، من خلال تحقيقها قيمة الناتج في تجارة الدولة التابعة لها ، فائض القيمة الذي ينتجه عمل العمال وتستخدمه لسد حاجاتها ، اي في المقام الاول لتطوير الاقتصاد القومي المشترك ، وكذلك لزيادة الامتيازات المادية لارستقراطية الحزب والبيروقراطية .

على هذا ، يمكن لفائض قيمة الدولة ان يتحقق بطريقتين : أ ـ بضبط أجر العمال والمستخدمين ؛ ب ـ بضبط أسعار المنتجات المباعة في مخازن الدولة . وفي كلتا الحالتين يتحقق ربح الدولة والفئة الحاكمة على حساب العمال والمستخدمين . فأسعار سوق الدولة محددة بمعدل الحد الاقصى ، المحقق ، وغير المحقق احيانا، والمضاعف عدة مرات ، والمتجاوز احيانا على نطاق واسع جدا نفقات العمل الفعلية التي تكلفتها الدولة لانتاج تلك المنتجات . ويتلقى الشغيلة ، من جانبهم ، أجر الحد الادنى الذي لا يكاد يسمح لهم ، بحكم أسعار المنتجات ، بأكثر من سد رمقهم . وكانت نتيجة ذلك إذلال الشغيلة معنويا ، ودفعهم في كثير من الاحيان الى البحث عن وسائل اضافية للعيش ، والى الجمع بين استخدامات متعددة ، وأحيانا الى انتهاك القانون .

وفي مقابل هذا النقص في وسائل المعاش ، الذي تعاني منه اوسع الجماهير ، توجد شرائح من السكان تتلقى أجورا عالية جدا : البيروقراطية العليا في الحزب والدولة، بما فيها العسكريون، وكذلك شغيلة العلم والفن الناجحون. والوضع في الزراعة اسوأ وأدهى . فقد كان من

المفروض ، بالفعل ، ان يكون للتعاونيات الزراعية ملء الحق في التصرف في قواها المنتجة ، في الارض والمعدات والآلات ، وبالتالي في كل منتجات عملها التي يفترض ان تبيعها للدولة على اساس الاتفاق الحر وبأسعار مناسبة لكلا الطرفين . وكان من المفروض ايضا ان تتمتع بالتسيير الذاتي الحر ، القائم على اساس انتخابية الموجهين والمنظمين .

اما في الواقع فقد بادرت القيادة الستالينية ، فور البداية بتنظيم الكولخوزات ، الى تطبيق نظام المصادرات الجماعية والتسيير القسري على هذه الكولخوزات بصورة دائمة . وقد أرغمت هذه الاخيرة على تعيين المناوبات الزراعية بحسب خطة «مفبركة» من قبل الشعب الزراعية للجان التنفيذية ، وتولى قيادتها رؤساء معينون من قبل اللجان المنطقية ، وفرضت عليها الضرائب في شكل تسليم عيني للبضائع بكميات تحددها الدولة وبأسعار مناسبة لها وحدها . وفي كثير من الاحيان كان حجم التسليمات العينية ضخما للغاية يتجاوز امكانيات الكولخوزات ، مما يجعل جزاء العمل زهيدا ، وأحيانا شبه معدوم . وعلاوة على ذلك ، وابتداء من النصف الثاني من الثلاثينات ، قلصت تقليصا كبيرا قطع الاراضي الخاصة التابعة للكولخوزيين ، وحد من حق تربية المواشي والدواجن بصورة محسوسة . وحظر على الكولخوزيين جز العشب لإطعام حيواناتهم في اي بقعة من الارض اينما

كانت . فلا غرو ان سعى سكان الكولخوزات ، في هذه الشروط ، الى كسب رزقهم بطرق اخرى ، والى التوطن في المدن للعمل فيها . وحتى يوضع حد لنزيف اليد العاملة هذا ، صارت جوازات السفر تسحب من الكولخوزيين ، وما عاد يؤذن لهم بمغادرة القرية بدون موافقة الرئيس والممثلين المحليين للسلطة .

وفي الواقع ، قضت القيادة الستالينيةعلى الكولخوزات بالدمار ، ولاسيما في الجزء الشمالي من روسيا الاوروبية، وجردت العديد من الكولخوزيين من كل اهتمام بالعمل . وما امكن للكولخوزات ان تفلت من قبضة البؤس ، بل ان تزدهر في بعض الاحيان، الا في الجنوب والجنوب الشرقي من البلاد حيث تعوض الارض عن العمل بمئة ضعف .

احبار الحزب ومرازبته

هكذا دخلت العلاقات الاقتصادية الفعلية القائمة في الصناعة والزراعة في تناقض صارخ مع مثل الشيوعية الاعلى ومع برنامج الحزب . ومنذ وقت مبكر للغاية شرعت الارستقراطية البيروقراطية التي توجه البلاد بإخفاء حقيقة الوضع عن السكان ، عن الجماهير الكادحة في المدينة والريف ، وباحاطة الاحوال الحقيقية والتطورات الاقتصادية القائمة في البلاد بنطاق من السرية والكتمان . وعلاوة على ذلك ، أخفي اقتصاد الاتحاد السوفياتي عن الرأي العام

العالمي ، سواء منه رأي الاوساط البورجوازية المعادي ام رأي البروليتاريا المتعاطفة مبدئيا مع الاتحاد السوفياتي في الاقطار المتقدمة .. فقد اضحى الاقتصاد موضوعا محرما ، لا يجوز لأحد ان يقول او يكتب عنه شيئا . لكن لما كـان الاقتصاد واحدا من المفاهيم الاساسية في الماركسية ، ولما كان من المستحيل ان يقال او يكتب في موضوعه اي شيء ، فقد توطدت بسرعة عادة فهم الاقتصاد على انه تطور القوى الصناعية في البلاد . وهكذا أطلق اسم «الاقتصاد» علـى بناء المناجم والمصانع والمعامل والمحطات الكهربائية والسكك الحديدية ، الخ ، وعلى تشغيلها ونشاطها . وكما يقول المثل الروسي غدا الاقتصاد ، بالمعنى الحقيقي للكلمة ، «كتابـا مختوما بسبعة أختام» .

ان هذا الحجب للاقتصاد عن أنظار السكان ، وانعدام الرقابة على جميع التدابير الاقتصادية المتخذة من قبـل السلطة ، كانا الاساس ونقطة الانطلاق لبقرطة سريعـة للسلطة بالذات ولنشوء هرم حزبي تراتبي بيروقراطي معزول عن الجماهير الكادحة ومتعال عليها . وقد حفرت هـذه السرية الاقتصادية هوة بين عسر الشغيلة المفـرط ويسر الارستقراطية المفرط ، وشجعت شتى ضروب سـوء استعمال السلطة في هذا المجال .

هكذا تم ، منذ أمد بعيد ، تشويه مبدأ الاشتراكيـة النظري : «من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجته» . فعمل المواطنين لا يُجزى جزاء عادلا ، حتى ولو دللوا على

قدرات تخرج عن نطاق المألوف وأدوا مهمتهم على خير وجه . وبالمقابل ، يحظى عمل اصحاب الامتيازات من اهل المدونة بجزاء عالٍ جدا ، وأحيانا باهظ ، حتى ولو لم يدللوا على اي كفاءة خاصة ، بل حتى لو كانوا مؤذين بتبجحاتهم وضارين بدواوينيتهم البيروقراطية. وقد تولدت عن هذا كله تناقضات معينة في حياة مجتمعنا .

هل يقوم هذا التناقض على اساس استغلال الجماهير الشعبية الواسعة من قبل الفئة السائدة في المجتمع ؟ انه لما لا يحتاج الى بيان ان اصحاب الامتيازات من اهل المدونة وأفراد أسرهم يتمتعون بموارد كبيرة لانهم يتملكون، بفضل شرعة حقوقية سرية ، جزءا من فائض القيمة الناتج عن انتاج مجمل الامة ، عن عمل العمال والكولخوزيين والمستخدمين العاديين . وحين تصطدم هذه الفئات المحرومة بوقائع تشهد على فرط الرغد الذي ترتع فيه الشريحة الحاكمة ، فانها تشعر تجاهها ، بالطبع ، بالغيرة والكراهية والازدراء ، وبنوع من البغضاء الاجتماعية .

وأولئك الذين يستأثرون على هذا النحو بجميع ضروب الامتيازات في الحياة اليومية ، والذين زادوا بالتالي سلطتهم وعززوها بل اساؤوا استعمالها ، هم في غالبيتهم ممثلو ارستقراطية الحزب البيروقراطية الذين يجنحون ، بحكم اصلهم الاجتماعي وتأثير الوسط المحيط ونوازعهم الشخصية ، الى العجب البيروقراطي بالذات ، والى العجرفة وروح التشيع وحب القيادة . وقد نشأ منذ امد بعيد نمط محدد من البيروقراطي الحزبي ، له سيماء

الشبعان حتى الاكتظاظ ، وحركات مهيبة فظة ، وطباع مستبدة وعنيفة . هذا لا يعني بتاتا ان جميع قادة الحزب ينتمون الى هذا النمط . فبينهم الكثيرون من المتواضعين والمستقيمين الذين يتمتعون باعتدال بامتيازاتهم ، وفي خفية عن الانظار على قدر الامكان . لكن «أحبار» الحزب ومرازبته كثيرون جدا مع الاسف . وكلما ابتعدوا عن موسكو وعاشوا على الاخص في مناطق الجنوب الشرقي ، انفلت اكثر فأكثر ظمؤهم الى السلطة من عقاله . بل انهم اضاعوا حتى عادة التفكير ببساطة لينين ، وبروحه الديموقراطية، ولم يعد لتعداد مناقبه وسجاياه في الخطب والمقالات التذكارية من تأثير عليهم البتة . وقد اماطت محاكمة بيريا وباغيروف اللثام عن المدى الذي يمكن ان يذهب اليه بعضهم ، ولاسيما رفيعي المقام منهم ، في تصعيد الجريمة .

بيد ان أخطر مظاهر نشاط هذ الارستقراطية لا يكمن في نزوعها الى سوء استعمال السلطة بصورة شخصية ، وانما في عجزها التام عن ادارة دفة البلاد بصورة فعلية . فقادة الحزب ، بحكم طبيعتهم البيروقراطية بالذات ، يدللون اكثر فأكثر في عملهم على خمول وعطالة ونزعة محافظة ، وعلى رغبة في التشبث بقوة بأشكال الحياة الروتينية ، وعلى التوجس من هذه التبدلات الحاسمة او تلك في العلاقات الاجتماعية القائمة والمبادىء السائدة .

وتؤثر الغالبية العظمى من البيروقراطيين السوفياتيين ان تتقيد على الدوام بحرفية القانون ، وبالطرائق والاساليب الروتينية ، في كل مرة تكون مطالبة فيها بأن تهيء وتطبق هذا الاجراء او ذاك ، وهذا بدلا من ان تسترشد في خطاها بمصلحة القضية وباعتبارات منفعة المجتمع وفائدة الدولة ورفاه الجماهير الكادحة. ان هؤلاء البيروقراطيين يغطسون حتى آذانهم ني الدواوينية الادارية ، ويتحاشون كل مبادهة مجددة في مضمار التنظيم ، ويدفنون أثمن الابتكارات التقنية، ويكبحون التبادل الأمميللخبرة العلمية، بل لا يحجمون احيانا عن مؤازرة أنصار النظريات المتخلفة وعن الافتراء على رواد الفكر العلمي الطليعي ، كما حدث على سبيل المثال في ميدان على الأحياء على مدى سنوات عديدة .

ان هذا كله يكلف المجتمع والدولة والشعب قاطبة ثمنا باهظا ورهيبا . وهذا يلحق فادح الضرر في غالب الاحيان بحظوة الاتحاد السوفياتي على الصعيد العالمي . وأحز مثال في النفس على هذه السوءات التقاعس المجرم الذي اتسم به استعداد القيادة الستالينية للحرب ؛ فقد دفعت البلاد خسائر وهزائم مرعبة في السنوات الاولى من القتال ثمنا لذلك التقاعس . ولم يكن هناك وجود لأي قوة قادرة على التغلب على هذه العطالة القاتلة وعلى هذه النزعة المحافظة لدى الدوائر الحاكمة .

كيف تنعكس هذه البنية الاجتماعية للمجتمع السوفياتي على علاقاته السياسية ، علـــى حياته الايديولوجيـــة والاخلاقية ؟ ان قيادة الحزب البيروقراطية ، بما تتمتع به من سلطان مطلق ، تخفي على الشغيلة اوالية الاستغـــلال الاقتصادي الجشع للعمال والمستخدمين ، وبوجه خاص الكولخوزيين ، باسم بناء الشيوعية . ويستفيد الحكام من ذلك ليكفلوا لانفسهم مكاسب مادية . وقد حدد ذلك ايضا بنية المجتمع السياسية . فدكتاتورية البروليتاريا ، التـي وضع ماركس ولينين أسسها النظرية ، تحولت بسرعـــة فائقة الى دكتاتورية لقيادة الحزب البيروقراطية .

وبالرغم من ان شكلين اثنين للملكية : ملكية الدولـــة المسماة خطأ بملكية «الشعب» والملكيـــــة «الكولخوزية ، الفلاحية والتعاونية» ، اللتين لكــــل منهما «مصالحـــــه السياسية الخاصة» ، اقول : بالرغم من ان هذين الشكلين من الملكية قد تعايشا ، حتى في منتصف الثلاثينات وبعـد تصفية الكولاك ، فان البلاد كانت ولا تزال محكومة فقط من قبل حزب سياسي منظم بيروقراطيا . وقد أدى ذلك الى انحطاط تام في شكل «سلطة السوفييتات» ، او بتعبـير أدق «سلطة نواب السوفييتات العمالية والفلاحية» .

ان بيروقراطية الحزب ، المستندة الى التسلســـــل التراتبي لاصحاب الامتيازات من اهل **المدونة** ، تحكم البلاد بواسطة مؤسسات الحزب لا بواسطة السوفييتات : اللجنة

المركزية ، اللجان المِنطقية ، لجان المحافظات ، وتحكمهـــا ايضا بواسطة مؤسسات الدولة الموضوعة تحت تصرفها : مجالس الوزراء ، الوزارات ، اللجان التنفيذية في المناطق والمحافظات وفروعها وشعبها . وجميع اجهزة الدولة هذه تحمل صفة «السوفياتية» ، وهي تُعد كذلك حقا كما تُعد السلطة التي تمارسها سلطة «السوفييتات» لمجـــرد ان المشرفين عليها، من ممثلي ارستقراطية الحزب البيروقراطية، يشغلون في الوقت نفسه وظائـــف نواب السوفييتات ، المنتخبين من قبل مجمل السكان على اساس انتخابـــات «مباشرة وسرية ومتساوية» . والحال ان هؤلاء النواب لا يرشحون من قبل السكان انفسهم ومنظماتهم الاجتماعيـــة ومن قبل رأي الشغيلة العام ، وانما يرشحون سرا من قبل هرم الحزب البيروقراطي . اما السكان فلزام عليهم ان يدعموهم وأن يصوتوا لهم .

ولا تتألف السوفييتات من بيروقراطيي الحزب فحسب، وانما ايضا من نواب آخرين ترشحهم الارستقراطية مكافأة لهم على ما قد يكونون أدوه من خدمات للمجتمع وعلـــى استعدادهم للانصياع الاعمى للسلطة . وهؤلاء النـــواب اعضاء في مختلف شُعب اللجان التنفيذية ، وهم يشاركون في مناقشة هذه او تلك من المشكلات التي تكون قد طرحتها وحلتها سلفا قيادة الحزب البيروقراطية التي على رأس تلك الشعَب واللجان التنفيذية ، وأحيانا الدوائر الحاكمـــة العليا بنفسها . والنواب العاديون عاجزون مطلق العجز عن

تغيير اي شيء ، كائنا ما كان ، بمبادرتهم وفطنتهم . ووظيفتهم الاساسية ان يكونوا صلة الوصل مع السكان ، وأن يتلقوا الطلبات والشكاوى ذات الطابع الشخصي في غالب الاحيان ، وأن يرفعوها الى السلطة البيروقراطية ، من دون ان تلبى اصلا بصورة آلية .

والشيء نفسه ينطبق على النواب المنتخبين لمجلس السوفييت الاعلى ، فهم يحضرون جلساته ويدلون بكلمات بصدد مشكلات مقدمة ومحلولة سلفا من قبل دوائر الحزب . ودورهم الدائم ان «يوافقوا دائما على راي الآخرين» بصورة شكلية محضة ، او ان يكيفوا القرارات مع حاجات مجالاتهم الاقليمية والمهنية . هكذا تتحول انتخابات هؤلاء النواب بالذات الى شكليات محضة ، خاوية من كل مضمون ، والى محاكاة ساخرة للديموقراطية السوفياتية . فالسكان ينتخبون مرشحين اختارتهم سلفا دوائر الحزب ، ثم انهم ينتخبون نائبا واحدا عن مرشح ممكن واحد . ولما كان الشعب يفهم ذلك كله ، او على الاقل يتحسسه ، تراه يذهب بكل وداعة الى صناديق الاقتراع ليؤدي واجبا مدنيا شكليا من دون ان يكترث البتة بنتائجه .

وعليه ، يمكننا القول ان «سلطة السوفييتات» لها وجودها في بلادنا بمعنى خاص : فارستقراطية الحزب تحكم البلاد باسم السوفييتات التي ينتخب نوابها في ظل القسر والاكراه . وليس المواطنون «اللاحزبيون» هم وحدهم المحرومين من كل حق سياسي ، وانما ايضا ، وعمليا ، حزبيو القاعدة . وكل شكل من أشكال الاختلاف السياسي ،

وكم بالاخرى الصراع السياسي ، كائنة ما كانت طبيعته ، يعتبر مرفوضا ومستأهلا صارم القمع السياسي . وعلى حد التعبير النافذ للكاتب أ. إياشين ، تحول اعضاء الحزب جميعا منذ أمد بعيد الى «عتلات» سياسية . وفي شروط كهذه يتقلص النشاط السياسي العام لسلطة الدولة بالذات ليقتصر على تنظيم المؤسسات الحكومية واعادة تنظيمها ، وعلى تسمية العاملين فيها ورفتهم ، وعلى ان تكون الناطقة بلسان وجهات النظر الرسمية للحكام .

لا ينبغي ان نستنتج من ذلك ان الصراع السياسي الناجم عن القرارات المتعلقة بالحياة المدنية غائب عن الساحة . فهو موجود ، لكنه يدور في الخفاء ، في جلسات مغلقة ، في أعماق اجهزة الحزب والدولة . ولا تشارك فيه الجماهير الكادحة بأي قسط ، وانما هي تتطلع على نتائجه عند نشر القرارات التي تم اقرارها او عن طريق الشائعات المعرضة على الدوام لان تكون كاذبة ، او حتى مروجة عن عمد من قبل هذه الزمرة او تلك من الزمر المناوئة في احيان كثيرة . وبعبارة اخرى : ان حياة البلاد السياسية مجردة من كل طابع ديموقراطي . فالسياسة محاطة بخاتم الكتمان ، مثلها مثل الاقتصاد ، ان لم نقل بدرجة اعظم .

من الطبيعي ان تبرز الى حيز الوجود مصاعب سياسية في هذا المناخ . فمنذ زمن بعيد والبلاد تعاني من دكتاتورية حلقة ضيقة من كبار قادة الحزب. وتتلبس هذه الدكتاتورية عادة شكل دكتاتورية بعض شخصيات تحيط بهاماتها هالة

سلطة مطلقة يسهل اساءة استعمالها . هكذا وجدنا ستالين ، حين بدأ يطبق في عام ١٩٣٤ سياسة القضاء على ابرز المعارضين الحزبيين ، يهاجم في الوقت نفسه عددا من قادة الحزب الرئيسيين الذين كانوا يعارضون صعوده وطرائقه في القيادة . وقد خيم على طول البلاد وعرضها جو من الرقابة والوشاية الداخليتين المنفلتتين . وقد لجأت اجهزة التحقيق القضائي الى تعيين مخبرين سياسيين في معظم المؤسسات والمشاريع والمنشآت ، بل حتى في الشقق المشتركة . وقبل العديد من المواطنين اداء هذه المهمة الشائنة ، اما بدافع الخوف ، وإما تحت ضغط الاجهزة البوليسية ، وإما عن طموح شخصي . وفي أعقاب ذلك ، لم يحجم بعض هؤلاء المخبرين عن اساءة استعمال سلطتهم بافترائهم على اشخاص بريئين تمام البراءة ، او بتسويتهم مع بعضهم حسابات شخصية .

بعد هذه «الحملة» من التجسس السري والاتهامات الملفقة ، بدات المرحلة الثالثة من اساءة استعمال السلطة اللامحدودة ، وهي المرحلة المرتبطة باسم إيوف ثم بيريا . وقد وقع الملايين من المواطنين السوفياتيين اثناء هذه الفترة ضحايا الاعتقال والتعذيب والاعدام ، وقضي عليهم بإقامات مطولة في السجون وفي معسكرات الاعتقال التي لم يرجع منها الكثيرون ممن قضوا نحبهم تحت وطأة الجوع والعمل المضنك والامراض .

وحتى يبرر ستالين هذا القمع الجماعي الموجه ضد المواطنين البسطاء ، شاد نظرية خاصة تزعم ان صراع

الطبقات في قطر يبني الاشتراكية سيستمر بل سيستفحل على امتداد مرحلة طويلة ، الى ان يتم بناء المجتمع الجديد وتوطيد أسسه . وكان ظاهرا للعيان ان المعنى الموضوعي لهذه العملية يكمن في رغبة ستالين ، ازاء الاستغلال القاسي الذي يعاني منه الشغيلة ويؤجج استياءهم ، وحيال تعاظم خطر العدوان من جانب الاقطار الرأسمالية ، يكمن في رغبته في تعزيز سلطاته على الدوائر البيروقراطية في الحزب الذي كان يتولى قيادته ويتحكم به عن طريق شق صفوف الجماهير الكادحة وتأليب الغالبية على الاقلية سياسيا . وقد قام جهازه البوليسي للتقصي والتحقيق بتوقيف حوالي عشر المواطنين ، واصفا اياهم بأنهم اعداء الشعب، ومتهما اياهم بالخيانة والتواطؤ مع القوى الاجنبية المعادية ، وهذا حتى يرهب الاعشار التسعة الباقية من المواطنين الذين لا يزالون طليقين ، وحتى يخلق بينهم وهم خطر يتهدد النظام الاشتراكي بالذات ، وحتى يزيدهم امتثالا وانصياعا للدوائر الحاكمة وللبيروقراطية ، وحتى يجعلهم اكثر اخلاصا ايضا للسلطة .

ولوضع اعمال القمع هذه موضع تطبيق ، تم العثور في الجهاز البوليسي للتقصي والتحقيق على عدد كبير من أفراد حائزين على بطاقة عضوية الحزب، ملؤهم الاستعداد، عن رغبة في الوصول او عن خوف يبلغ درجة الانحلال الاخلاقي ، لتطبيق اقسى الاجراءات واشدها وحشية بحق الاشخاص الموقوفين . وبالرغم من ان عدد المعذّبين

والساديين فيمعسكرات الاعتقال الستالينية كان أقل بكثير مما في المعسكرات الهتلرية ، فانه في وسعنا ان نؤكد انه لم يكن هناك اي فرق مبدئي بينها . ولئن كان الفاشيون قد أحرقوا في الافران البشرية ، أفران مايدانيك او أوشفتز ، مواطني البلدان المحتلة بوجه خاص ، فان شرطة ستالين وسجانيه كانوا يمارسون مواهبهم على مواطنيهم بالذات . ولهذا السبب تصب اللعنات في بلادنا جهارا على الفاشيين الذين اعملوا سُيف التعذيب والقتل في رقاب الشعوب ، ويلتزم الصمت المطبق بصدد اجهزة القمع الستالينية . ولا يزال الكثيرون من جلادي التعذيب السابقين طليقين يتقاضون معاشات تقاعدية سخية .

عقائد السلطة

ان نظام المركزية البيروقراطية في الحزب الذي هو أس الحياة السوفياتية كان لا بد ان ينعكس على ايديولوجيته . فايديولوجيا العهد القائم لا مهمة لها بالفعل سوى تبريره في نظر المجتمع عن طريق الاشادة بجوانبه الايجابية والسكوت عن مظاهره السلبية . والايديولوجيا في الدولة السوفياتية لا تصاغ وتذاع بين السكان الا من قبل قيادة الحزب البيروقراطية التي تحكم البلاد بأساليب دكتاتورية قائمة على اساس نظام السرية في كل ما يمت بصلة الى الاقتصاد والسياسة . المركزية الايديولوجية هي

السائدة اذن في البلاد ؛ فهناك ايديولوجيا وحيدة تنفي وتقمع كل ما عداها . فالصحافة والرقابة محصورتان في مجملهما بين يدي الحزب والدولة الموضوعة تحت تصرفه . وحق الاجتماع والاعلام العام مقصور عليه وحده ، وهو وحده الذي يتصرف به . وحرية الكلام مرفوضة في جميع أشكالها .

لهذا السبب بالتحديد تجهل الايديولوجيا السائدة مبادىء البحث والروح النقدية . فالنقد لا يمكن ان يوجه الا الى بعض الوقائع او بعض الاشخاص المفردين ، وهذا بشرط ألا يكونوا من ذوي المناصب العالية . ومن المحظر ، تحت طائلة العقوبة الصارمة ، انتقاد النظام القائم ومبادىء تنظيم السلطة وتسيير الحياة الاجتماعية . ولهذا السبب لم تجر قط اي مناقشة علنية لا في المجتمع ولا حتى في الحزب . فعهد المناقشات السياسية ، كتلك التي دارت في عام ١٩٢٠ ، يبدو الان خرافيا تماما . وهذا كله يحول الايديولوجيا الى عقيدة رسمية معصومة ، والى حد كبير لفظية ، شكلية ، مبنية على هوس الاستشهادات والرجوع الى الثقات . لكن مؤلفات ماركس وانجلز ولينين لا يُختار منها الا الاطروحات القمينة بتبرير الوضع القائم ، في حين يضرب نطاق النسيان على الاطروحات الاخرى . وهذا الاسلوب يُستخدم بوجه خاص مع مؤلفات لينين وتصريحاته ، بالرغم من ان التصور السائد يتسمى باسم «الماركسية ــ اللينينية» . وتاريخ الحزب يكتب بطريقة

مغرضة جدا بغية نفخ سلطة قيادة الحـــزب ونشاطها ، وتسويد صفحة كل معارضة وجميع خصوم تلك القيادة . وبسلوك هذا المسلك ، يسقط عدد كبير من الاحـــداث والاسماء في بئر النسيان ، وتنسب الى اولئك الذين يراد تشويه سمعتهم أفعال وأفكار لم يأتوها قط .

ان هذه الايديولوجيا المحولة الى عقيدة تفرض علـــى الجماهير فرضا من خلال الصحافة والتصريحات العلنيـة للقيادة . وهي تفرض على الشبيبة في مؤسسات التعليم العالي ، وفي نظام التربية السياسية الحزبية ، وفـــي مدارس الحزب . وهي تجد بالطبع بين السذج من الناس وغير المتطورين سياسيا من يتقبلها وكأنها انجيل ، وتسهم بدورها بالتالي في تعميق تلك السذاجة وذلك التخلف . ويبذل بعض الافراد ، ولاسيما اعضاء الحزب ، ما فـــي وسعهم لكي يتمثلوها ، معتبرين ذلك واجبا أخلاقيا تجاه الحزب .

هذه الدعاية الايديولوجية الرسمية تدفع بالحتـــم والضرورةبالعديدين الىاللامبالاة والانحطاط الايديولوجيين، والى الريبية ، وأحيانا حتى الى الكلبية . وقد اتسع منذ أمد بعيد نطاق عملية انفصال الايديولوجيا عن المجتمع ، مما أوجد مناخا مناسبا لشتى ضروب المؤثرات والاغراءات ، حتى الخرقاء منها أحيانا . ونتيجـــة هذا كله ليست ، بالطبع ، تقوية النظام ، وانما على العكس إضعافه .

ان اخلاق المجتمع تتولد في خاتمة المطاف عن المبادىء المادية والايديولوجية التي تسيّر البلاد . فالاخلاق الدينية القديمة التي كانت تحث على عمل الخير وعلى احقـــاق العدالة لكسب الحياة الابدية فقدت اعتبارها في نظـــر غالبية اعضاء المجتمع الجديد ، بالرغم من ان الدعايـــة الايديولوجية الرسمية ، بتجريدها البارد ، تدفع ببعضهم الى الخضوع لاغراء منظومة الرموز الدينيـــة القديمة . وبالمقابل فان الاخلاق الجديدة المادية النزعة غير محللـــة ومعمقة على الصعيد النظري ، وغير مبنيـــة على أسس سليمة من وجهة النظر الفلسفية والتاريخية . فهي ترتد ، بدورها ، الى محض اشهار دوغمائي للشعارات المجردة ، العاجزة عن التأثير في العقول تأثيرا قويا وعميقا . وفـي كثير من الاحيان تشجع العلاقـــات المتحكمة بالمجتمـــع السوفياتي على انبعاث مخلفات او أفعال لاأخلاقية . فمن جهة اولى ، تخلق البحبوحة المادية ورفاهية الحياة ، اللتان ترتع فيهما ارستقراطية الحزب البيروقراطية ، لـــدى اصحاب الامتيازات من اهل **اللدونة** ، وبوجه خاص لـدى اعضاء أسرهم ، الصلف والعجب بالذات في كثير مـــن الاحيان ، وكذلك الفساد والانحراف . وتدفعان بهم الـى الرغبة في الحصول على المزيد دوما ، والى استغلال معدات الدولة واستملاكها ، والى اطلاق العنان لشهواتهم الجامحة التي تقودهم احيانا الى الجريمة . وقد تحدثت الصِحافة

عن «تعفن» بعض الشبان ، ممن أفسدهم واضلهم فرط الفنى . وقد تنهشهم الالسنة بين الحين والآخر ، وقد يدانون بين الفينة والاخرى ، لكن ذلك لا يبدل شيئا في الوضع .

ومن الجهة المقابلة ، كثيرا ما تدفع رقة الحال المادية بشغيلة المدينة والريف الى تحسين مستوى حياتهم البالغ الانخفاض عن طريق السرقة ، وهذا ما يؤدي ايضا الى انحطاطهم الاخلاقي الذي يجد تعبيره في العديد من الظاهرات المستهجنة : السكر ، اساءة معاملة الزوجات والاولاد ، المشاحنات العائلية ، رفض العمل ، الجنوح ، وأحيانا الاجرام الاخرق . وليس الغريب فحسب ان ينغص رجال غارقون في بؤس مدقع الحياة على أفراد أسرهم ، او ان يقترفوا الجرائم ، بل الغريب ايضا ان يقدم رجال يشغلون وظيفة مناسبة ويتقاضون في كثير من الاحيان أجورا طيبة على هجر الزوجات والاطفال ، وأحيانا على اشهار السكاكين لا عن عوز وإملاق وانما عن ضعف تربية وحطة اخلاقية . وقد يصل الامر احيانا الى تخوم الحيوانية والسادية ، فقد سمعنا على سبيل المثال بشخصين كانا يلعبان بالورق على حياة المارة او الزوار .

وقد يبدو ان الوضع ليس على هذا القدر من التدهور بالنسبة الى الشرائح المتوسطة من المجتمع السوفياتي التي يظل مستوى حياتها متواضعا والتي تكسب في الوقت نفسه ما فيه الكفاية لتكفل لأسرها حياة لائقة . والحال انه

انما في الوجدان الاخلاقي لهذه الفئة تتجلى بصورة ساطعة سمة سلبية اخرى من سمات الحياة السوفياتية : انعدام الروح الديموقراطية الحقة والحس المجتمعي . وهذا ما يحمل اولئك الناس على الانزواء في عالم المصالح الخاصة، العائلية ، وعلى التطلع الى حياة بورجوازية صغيرة . فالشاغل الاول للمواطن السوفياتي العادي ، فيما عدا عمله ، ان يشتري اقصى حد ممكن من السلع الاستهلاكية، وان تكون له شنقة جميلة ، وفسحة من الارض لعزبته ، وجهاز تلفزيون ، وملابس ، الخ . وهو يدخر المال ويتباهى بذلك امام اقاربه وجيرانه . والواقع ان اصحاب هذه العقلية هم الذين يمثلون البورجوازية الصغيرة السوفياتية.

ويترتب على انعدام الروح النقدية الديموقراطيةوحرية الراي والكلام في حياة مجتمعنا ، وعلى الطابع الرسمي والدوغمائي للايديولوجيا ، الفصل بين اعضاء المجتمع في حياتهم اليومية واستغراقهم في اللامبالاة واللاحساسية تجاه بعضهم بعضا . لا مراء في اننا قد نعثر على أسر او على جماعات مهنية تربط بينها وشائج قوية ، ويدعم اعضاؤها بعضهم بعضا معنويا . لكنها لا تعدو ان تكون جزرا صغيرة ضائعة في صحراء اللامبالاة والعزلة الاخلاقيتين . ومن يكن بلا اسرة كبيرة متلاحمة وبلا أصدقاء مخلصين ، فلا أفق له في الحياة سوى الرؤساء الذين هم محض بيروقراطيين باردين ، وسوى جيران لامبالين ولا مكترثين . واذا ما وقع في شدة ، فنادرون هم الذين سيظهرون الارادة والرغبة في مساعدته وشد أزره .

بوجه الاجمال ، ليس لدى المواطنين السوفياتيين ادنى فكرة عما يمكن ان تكونه الديموقراطية السوفياتية الحقة وما ينجم عنها من جماعية في العلاقات الاجتماعية . ولئن كان المجتمع السوفياتي في حياته الاجتماعية والسياسية قد تحول منذ زمن بعيد الى مجتمع بيروقراطية ممركزة ، فانه قد اصبح منذ زمن بعيد ايضا، في مبادئه الايديولوجية والاخلاقية ، استبداديا وقائما على اساس تقديس السلطة. وان لغالبية المواطنين الواعين ، المخلصين للنظام ، رؤية بورجوازية صغيرة للعالم تحت ستار «الماركسية ــ اللينينية » .

ان النهم الى السلع الاستهلاكية والى الاغتناء الفردي ليس سببه الوحيد خصائص العلاقات الاخلاقية والاقتصادية التي تحكم بلادنا . فهناك بكل تأكيد اسباب اخرى تاريخية أعمق وأبعد غورا بكثير . كتب هرزن في عام ١٨٦٩ في الرسالة الاولى الى رفيقه القديم : « يوم ينسف البارود العالم البورجوازي بأسره ، وعندما ينقشع الدخان وتزال الانقاض ، سيبدأ هذا العالم بتشييد عالم بورجوازي آخر من جديد مع بعض التعديلات . وهذا لانه لم يكتمل داخليا ، ولانه لا وجود هناك لأي تنظيم جديد مهيأ مثله لتكملة ذاته بانجازه نفسه» .

يشتمل الطريق الروسي للانتقال الى الاشتراكية على خاصة فريدة : فبسبب ضعف البورجوازية المربوطة وثيق الربط بالنظام الاوتوقراطي والمولوي ، وبسبب افلاسها

القومي الشامل ، اوقف تطور الرأسمالية في روسيا من بدايته . فالشعب الروسي لم يعرف ولم يعش المرحلة الاعتيادية من العلاقات الرأسمالية . وهذا النزوع لم تتم تلبيته ، كما كان واجبا ، من خلال تطور تاريخي موضوعي. بل على النقيض من ذلك : فتلك العلاقات ، التي كان لها وجود ذاتي داخلي ، سحقت سحقا تحت وطأة الانتقال المفاجىء الى مصادرة الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . لم يكن العالم البورجوازي الروسي «مكتملا داخليا» ، ومن الطبيعي ان يشرع بالطفو تدريجيا على أديم العالم الاشتراكي ، وذلك بقدر ما تسمح مبادىء الانتاج الاشتراكي والحياة المشتركة . والعودة الى ذلك العالم مستحيلة بالطبع ؛ بيد انه يعاود ظهوره بين الفينة والفينة وهو المكبوت في أعماق قلوب السوفياتيين ، ويعرقل بشدة تطور المجتمع الجديد .

محاكاة ساخرة للشيوعية

هذا هو الجانب السلبي في الحياة الاجتماعية للشعب الذي كان اول من سلك الطريق الروسي للانتقال الى الشيوعية والذي لا يزال يسلكه منذ نحو خمسين عاما . وقد تكونت جميع سماته الوبيلة وترعرعت ابان الثلاثين عاما من القيادة الستالينية . وقد قضى ستالين نحبه في

عام ١٩٥٣ ، وبعد هذا التاريخ كان يمكن للمرء ان يتصور ان ثمة تغيرات هامة طرأت على حياة المجتمع السوفياتي . فقد استعادت الشرعية حقوقها ، وما عاد الابرياء يُشهَّر بهم على انهم «اعداء للشعب»، وما عادوا يعتقلون ويحاكمون في جلسات سرية فيعدمون او ينفون او يحبسون في معسكرات اعتقال .

لكن هل هذا يعني ان نظام بلادنا الاجتماعي قد طرأت عليه تغيرات مماثلة ؟ اننا مكرهون على الاجابة بالسلب على هذا السؤال . فسلطة الدولة لا تزال في يدي ارستقراطية الحزب البيروقراطية . والسياسة لا تزال تُخفى عن الجماهير الكادحة . ولا تشارك لا النقابات ولا اي منظمات اخرى ، كائنة ما كانت ، في تسيير الانتاج . ولا يزال الشغيلة يصوتون لنواب سوفييتات مختارين سلفا ، وباسمهم لا تزال تحكم البلاد من قبل الوزراء ورؤساء اللجان التنفيذية واللجان المِنطقية الذين تعينهم اللجنة المركزية ولجان الحزب المِنطقية . ولا يزال البون شاسعا بين الرغد المادي المفرط الذي ترتع فيه الارستقراطية الحاكمة وبين الاجر البالغ التدني لغالبية العمال والمستخدمين والكولخوزيين . ولا يزال هذا التفاوت سبب العديد من جرائم الحق العام . ولا يزال التصور الايديولوجي الرسمي الملقَّن من القمة بلا مناقشة يهيمن على وعي المواطنين . ولا يزال يتولد عن ذلك كله تظاهرات من اللاأخلاقية الاجتماعية . ولا يزال المواطنون السوفياتيون محرومين من كل اعلام ديموقراطي حق .

انهم ينفذون بوداعة تعليمات السلطة العليا ويعيشون حياتهم المتواضعة كمنتجين ومستخدمين وبورجوازيين صغار . وثبات مبادىء تسيير البلاد وعدم جواز تبديلها يرجعان الى اسباب داخلية وخارجية .

فمن الاسباب الداخلية ان ارستقراطية الحزب البيروقراطية ، التي نشأت وتربت في عهد ستالين ، لا تريد بأي صورة من الصور ان تتخلى عن سلطتها الشخصية اللامحدودة واللامراقبة واللامسؤولة، وعن سرية اجراءاتها السياسية والاقتصادية، وعن امتيازاتها الحقوقية والمادية. فهي قد اعتادت طراز الحياة والفكر هذا وتفوقعت فيه ، ولا تفهم ، او تتظاهر بأنها لا تفهم ، الى اي حد يتناقض مطلق التناقض مع الديموقراطية الاشتراكية الحقيقية . وتشهد على ذلك واقعة نموذجية : فالمحاولات التي بذلها خروتشيف ليحد ، ولو جزئيا ، من الرفاه المادي لاصحاب الامتيازات من اهل **المدونة** لم تتمخض عن اي نتيجة تذكر. فقد حيل ، بكل بساطة ، بينه وبين ذلك .

اما العلة الخارجية للتشبث بالمبادىء الستالينية فهي ظهور الولايات المتحدة الاميركية على راس العالم الراسمالي قوة عدوانية كبرى . اذ ان ذلك يرغم حكومة الاتحاد السوفياتي على تخصيص ميزانية ضخمة للدفاع ، وعلى الابقاء على نظام بوليسي شديد في البلاد ، وعلى التمسك بسرية الاقتصاد والسياسة ، وبسلطتها اللامحدودة كذلك.

ان حدوث انعطاف على مستوى القمة امر لا غنى عنه لتبديل الوضع القائم . فمن المستحيل ان نعقد الآمال على

مبادرة من القاعدة. فالجماهير الكادحة قد اعتادت الخضوع والطاعة الى درجة تعجز معها عن إجبار الدوائر الحاكمة على الشروع بتحقيق المهام التي طرحها لينين على المجتمع السوفياتي في السنوات الاخيرة من حياته.

ان تحقيق الشيوعية لا يعني فقط تنمية القوى المنتجة. فالشيوعية هي قبل كل شيء الانتصار التام للروح الديموقراطية الاشتراكية وللمبادهة المجتمعية الحرة لدى الجماهير، على اساس من التسيير الذاتي للشغيلة في جميع ميادين الحياة. وما لم نشرع بالمكافحة التدريجية والواعية للانحرافات الرهيبة التي طرأت على الديموقراطية السوفياتية والتي هي الخاصة الجوهرية للنظام الراهن، فستكون الشيوعية مستحيلة في الاتحاد السوفياتي، في عشرين سنة كما في مئة سنة. وفي هذه الشروط، سيكون النظام الوحيد الممكن محاكاة ساخرة للشيوعية.

صدر عن دار الطليعة

وصدر عن دار الطليعة

ضمن سلسلة «الثقافة المعاصرة»

المارکسية اللينينية ونظرية الحزب الثوري

منير شفيق

القضايا الفلسفية المعاصرة

اميل براهييه

ما الوعي الطبقي ؟

ويلهلم رايش

علم الثورة في النظرية الماركسية

يودي كرازين

الادب والثورة

تروتسكي

الماركسية بعد ماركس

بيير سويزي

هذا الكتاب

ان « تقرير خروتشيف السري » قد يبدو مكتوباً بماء الورد بالمقارنة مع هـذا النص «الطريق الروسي الى الاشتراكية» الذي اشتهر باسم « وصية فارغا » . وبالفعل ، ان يوجين فارغا الذي كان اعظم الاقتصاديين السوفياتيين على الاطلاق ، يرسم هنا صور في غاية القتامة للمشروع الستاليني ، لكنها في الوقت نفسه في غاية الجذرية ، اذ انه لا ينسب « الاخطاء » الى شخص ستالين فحسب ، بل الى بنية النظام اساساً . ومن هنـا فانه لا يحصر نقـده بالعهد الستاليني بل يسحبه على عهد خلفاء ستالين وهو يفعل ذلك بجرأة نادرة لانه كان يعلم ان وصيته غير قـابلة للنشر الا بعد وفاته .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ٢٢٥ ق . ل.